خطاب الله – سبحانه وتعالى – لغير العاقل في القرآن الكريم "دراسة بلاغية"

د. البدري فؤاد عبد الغني(*)

المقدمة:

الحديث فى القرآن الكريم طريف فى كل وقت ، لذيذ فى كل حال ، فياض المعين ، خصب الجوانب ، ولا يمكن أن ينتهي حسنه ، أو تبلى جدته، أو يمل جرسه ، أو يثقل على السمع رجعه ، أو يضيق العطن على من يتناوله ، أو تلتوى المسالك على من يسير معه ، ولذلك جعله أسلافنا النبراس المضيء ، والشعاع الهادى ، والقاضى العادل ، والناصح المخلص، والميزان الدقيق ، والصديق الوفى ، والرفيق المؤنس ، والطبيب الحاذق ، والمورد العذب ، والطريق المستقيم ، والحكم الذى لا يتحيز إلى أحد ... وقد عكفوا على النظر فيه والاهتمام به ، والاستفادة منه والرجوع إليهم ، وأقبلوا على دراسته ، وأخذ كل منهم منه رغبته المطلوبة ، وضالته المنشودة ، وحاجته الملحة ، فلم يكن كتاب تشريع ولا دستور حكومة ، ولا مصدر فقه ، ولا قاموس ألفاظ ، بمقدار ما كان دائرة معارف فى المنطق والفلسفة ، والطب ، والهندسة ، والسياسة ، والإدارة ، والأدب ، والتهذيب والتربية ، والأخلاق ، والبلاغة والذوق ، وما شئت من علوم كانت أو ستكون على تلك الكرة الأرضية التى يزحمها الإنسان والحيوان والشجر والدواب ، وما أدرى لهذا كله من سبب إلا أن تكون هى البركة التى أودعها الله فيه ، وقرنها به ، وربط ما بينها وبينه ، أو أن تكون عناصر الحياة التى جعلها – سبحانه – فيه هى التى صيرته – هكذا – يمد كل من يطرق بابه ، ويقرأ كتابه ، ويغشى رحابه ، ويعود منه بزاد من العافية ، وقسط من السلامة ، ومعنى من السداد والرشاد ، والحكمة والصواب ، والعلم والحلم ، والعقل والرأى ، والذوق والإدراك ، والأدب الجم ، والقول الفصل، والأسلوب الجيد ، والحجة الواضحة ، والبرهان القاطع ، والحكمة البالغة، وربما كان هذا بعض معانى السحر الذى زعمت قريش أنه من سماته، حينما

(*) المدرس في كلية اللغة العربية بجرجا – قسم البلاغة والنقد.

أخذ عليها المنافذ ، وسد أمامها المسالك ، وأقام فى وجهها العراقيل ، فلم تجرأ على الكيد له ، أو النيل منه ، أو الغض من شأنه ، أو الحط من منزلته ، أو إثارة الغبار فى طريقه ؛ لأن السحر من الأمور الخفية والمعانى المجهولة ، والأشياء التى لا ترتبط بقانون ، ولا تخضع لنظام ، ولا تظهر فيه علة ومعلول ، وسبب ومسبب ، وبخاصة بعد أن آمنوا أنه من جنس كلامهم ، وعلى طريقة نسجهم ، وغرار منطقهم ، وسنن تأليفهم ، إلا أن ماءه الذى يترقرق فيه ، وغدقه الذى يفيض به ، وقوته التى تزلزل الأسماع ، وتهز الأفئدة ، وتتملك زمام القلب ، لا يمكن أن تكون لأحاديث صناديدهم ، ولا لخطب فحولهم ، ولا لشعراء أمراء البيان عندهم [1] .

ولقد مَرَّ عليه هذا التاريخ واعترته تلك الحقب ، وتناولته بالدراسة والتحليل أجيال وقرون كثيرة ، وستظل تتناوله أجيال بالقرون الآتية إلى يوم القيامة ، كل ذلك ويوم القيامة يأتى بكراً ، كأنه لم يمس ؛ لأنه من صنع الله، وصانعه – وحده – هو الذى يعرف أسراره ودقائقه ولطائفه الخفية .

لهذه العوامل وتلك الأسباب السابقة وجدت نفسى أشتاق إلى البحث فى هذا المجال مع تأكدى أنه طريق صعب المرتقى بعيد المنال ، واسع الشعاب، ولكن الذى شفع لى نية خالصة فى قلبى تريد أن تتعرف على أسباب مدى عظمة كلام الله – سبحانه وتعالى – الذى لا تنفد عجائبه ، ولا تنتهى غرائبه ، ولا تأفل كواكبه ، ولا تجف زهرته ، ولا تقل نضارته ، ولا يخلق جديده ، ولا يبيس عوده.

فأخذت أتأمل فى آياته مرة ، وأعاود النظر فى كلماته مرة أخرى ، فلفت ذهنى فيه قضية الخطاب ، إلا أننى وجدت الخطاب على عمومه ، متشعب المسالك ، كثير الدروب ، واسع الأغوار ، متعدد السياقات .

---

[1] – ينظر : من فيض القرآن – د / إبراهيم على أبو الخشب ص ٧ ، ٨ – الطبعة الأولى – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م .

سياق يخاطب الذين آمنوا : { يا أيها الذين آمنوا } ورد هذا الخطاب فى تسع وثمانين مَوضعاً فى القرآن الكريم [٢] .

وسياق يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم { يا أيها النبى ... }ورد هذا الخطاب فى اثنا عشر موضعاً فى القرآن الكريم [٣] .

وسياق يخاطب الرسل عامة : { يا أيها الرسل ... }ورد هذا الخطاب مرة واحدة فى سورة المؤمنون آية ٥١ .

وسياق يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم : { يا أيها الرسول ... } ورد هذا الخطاب فى موضعين فى سورة المائدة فى الآية٤١ ، والآية ٦٧)

وسياق يخاطب الإنسان : { يا أيها الإنسان } ورد هذا الخطاب فى موضعين فى سورة الانفطار آية ٦ ، وفى سورة الانشقاق آية ٦ .

وسياق يخاطب النفس المطمئنة: { يا أيتها النفس المطمئنة} ورد هذا الخطاب فى موضع واحد فى سورة الفجر آية ٢٧

وسياق يخاطب الذين كفروا { يا أيها الذين كفروا } ورد هذا الخطاب مرة واحدة فى سورة التحريم آية ٧ .

وسياق يخاطب أهل الكتاب : { يا أهل الكتاب ... } ورد هذا الخطاب فى ستة مواضع فى القرآن الكريم [٤] .

وسياق يخاطب نبى الله إبراهيم : { يا إبراهيم ... } ورد مرتين واحدة فى سورة هود آية ٧٦،والثانية فى الصافات آية ١٠٤

وسياق يخاطب السيدة مريم : { يا أخت هارون ... } ورد أربع مرات[٥] .

وغير ذلك كثير وكثير من السياقات التى اشتملت على الخطاب ، فلما وجدت الخطاب بعمومه يتناول هذه الكثرة الهائلة ويحتاج إلى كم كبير من

---

2 – ينظـر تفـصيل هذه المواضع فى كتاب : دليل الحيران فى الكشف عن آيات القرآن – ترتيب الحاج / صالح ناظم ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ – طبع على نفقة محمد على صبيح وأولاده .

3 – ينظر تفصيل هذه المواضع فى المرجع السابق ص ٢٧٩ .

4 – ينظر : تفصيل هذه المواضع فى كتاب دليل الحيران ص ٢٨٠ .

5 – فى الآية ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ من سورة آل عمران ، وفى سورة مريم آية ٢٨ .

الأبحاث حتى تستوفى هذا الخطاب يممت وجهى نحو نوع معين من أنواع الخطاب وهو " خطاب الله – سبحانه وتعالى – لغير العاقل فى القرآن الكريم " دراسة بلاغية " .

واختارت الدراسة هذا النوع بخاصة من بين أنواع الخطاب لأسباب متعددة :

أولاها : أن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم فيه طرافة وجدة ؛ لأنه خطاب جاء على غير العادة لأن الذى يُخاطب هو العاقل ، أما أننا عندما نسمع خطاباً يوجه إلى غير العاقل فإن نفوسنا تتشوق وتتلهف لمعرفة الأسرار البلاغية من وراء هذا الخطاب ، وكيف يخاطب غير العاقل ؟

ثانيها : أن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم قد أخذ أشكالاً متعددة ، وصوراً متباينة ، فمرة يجئ على صورة النداء المصحوب بفعل الأمر ، كقوله تعالى لما خاطب الأرض ببلع الماء والسماء بالإقلاع : { وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ }[٦] .

ومرة يجئ على صورة الأمر بدون أن يسبقه نداء ، كقوله تعالى فى خطابه للنحل : { وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[٧] .

ومرة يجئ على صورة الاستفهام كخطابه – سبحانه وتعالى – للنار فى قوله : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ }[٨] .

---

6 – الآية ٤٤ من سورة هود .
7 – الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة النحل .
8 – الآية ٣٠ من سورة ق .

فمما لاشك فيه أن مجئ خطاب الله لغير العاقل على أشكال متباينة ، وصور متعددة ، وراءه أسرار بلاغية كثيرة ، تستدعى الوقوف أمامها ، وتتطلب دراسة تظهر بعض أسرارها – حتى وإن لم نصل إليها نحن ، فسيصل إليها غيرنا بذوقه وكثرة مرانه .

ثالثها : أن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم ، لم يكتب فيه أحد إلى الآن – فيما أعلم – ولم تقع عينى على دراسة بلاغية تتناول خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم ، إلا الإمام الزركشى فى كتابه البرهان ، ذكر عنواناً تحت مسمى (خطاب الجمادات خطاب من يعقل) وذكر تحت هذا العنوان ما يلى :

" كقوله تعالى : { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }[9] ، تقديره : طائعة . وقيل : لما كانت ممن يقول وهى حالة عقل ، جرى الضمير فى (طائعين) عليه ، كقولهم { رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ }[10] .

وقد اختلف أن هذه المقالة حقيقة بأن جعل لها حياة وإدراكاً يقتضى نطقها ، أو مجازاً بمعنى ظهر فيها من اختيار الطاعة والخضوع بمنزلة هذا القول على قولين : قال ابن عطية : والأول أحسنها لأنه لا شىء يدفعه ، والعبرة فيه أتم والقدرة فيه أظهر ، ومنه قوله تعالى : { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ }[11] فأمرها كما تؤمر الواحدة المخاطبة المؤنثة ؛ لأن جميع ما لا يعقل كذلك يؤمر"[12] هذا كل ما ذكره فى هذا الموضوع مما أوجد فى نفسى رغبة شديدة للكتابة فى هذا النوع من الخطاب .

<u>وقد جاءت هذه الدراسة على منهج هو كالآتى :</u>

أولاً : حصرت الآيات التى تشتمل على خطاب الله لغير العاقل .

---

9 – الآية ١١ من سورة فصلت .

10 – من الآية ٤ من سورة يوسف .

11 – من الآية ١٠ من سورة سبأ .

12 – البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٢ / ٢٤٦ – ٢٤٧ – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت – من دون .

ثانياً : ذكرت مناسبة الآية لما قبلها ، مع ذكر المعنى العام لها ، إن لم يكن فى ذكر المناسبة بيان له .

ثالثاً : حللت الآية تحليلاً بلاغياً كاملاً ، معتمداً على الوقوف عند كل لفظة ، وسر التعبير بها دون مرادفها ، ومن مجيئها نكرة أو معرفة ، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ، وما توحى به من إيحاءات بلاغية ، وما فى الآية من بلاغة التراكيب والتصوير البيانى والبديع الذى يؤثر فى المعنى ويبرز جماله

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تأتى فى : مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة .

فأما المقدمة : وهى التى نحن بصددها ، فذكرت فيها أهمية الموضوع وفائدته ، وأسباب اختيارى له ، وخطة البحث ومنهجى فيه

فالمبحث الأول : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للأرض والسماء .

المبحث الثانى : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للنحل .

المبحث الثالث : خطاب الله – سبحانه وتعالى –للجبال والطير.

المبحث الرابع : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للنار .

وأما الخاتمة : ففيها أهم النتائج التى توصلت إليها هذه الدراسة .

وبعد فإن أكن قد وفقت فلله الحمد والمنة ، وإن كانت الأخرى فأرجو الله – تعالى – أن يثيبنى على نيتى وقصدى ، وما بذلته من جهد ، كما أسأله أن يغفر لى جرأتى على خوض هذا المجال . إنه ولى ذلك كله والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

خطاب الله – سبحانه وتعالى – لغير العاقل

وقد جاء فى أربعة مباحث :

- المبحث الأول : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للأرض والسماء .
- المبحث الثانى : خطاب الله – سبحانه وتعالى –للنحل.
- المبحث الثالث : خطاب الله – سبحانه وتعالى –للجبال والطير.
- المبحث الرابع : خطاب الله – سبحانه وتعالى – للنار.

المبحث الأول

خطاب الله - سبحانه وتعالى - للأرض والسماء

ورد هذا الخطاب في موضعين ، الموضع الأول في سورة هود { وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ وقُضِيَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } آية ٤٤ .

مناسبة هذه الآية للآيات التي قبلها :

لما أغرق الله أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ، وتم النداء العلوي ، وبلعت الأرض ماءها ، وكفت السماء عن المطر وغاض الماء ، وقضي الأمر ، وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه للظالمين ، واستقرت السفينة بمن فيها على جبل الجودي ، وقيل هلاكاً وخساراً للقوم الظالمين ، وبعداً لهم من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية بسبب ظلمهم وكفرهم .

من الأسرار البلاغية في الآية :

بدأت هذه الآية بالفعل الماضي المبني للمجهول (وقيل) والواو التي سبقت هذا الفعل قيل : بأنها استئنافية [١٣] ، وقيل : بأنها عاطفة [١٤] ، ولعل الأرجح أن تكون عاطفة ؛ لأنه لما أفاد قوله { فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ } وقوع الغرق الموعود به على وجه الإيجاز ، انتقل الكلام إلى انتهاء الطوفان [١٥] .

وتأمل تعبير النظم القرآني بالفعل الماضي المبني للمجهول (قيل) وفي ذلك حذف للمسند إليه ، وهو لفظ الجلالة (الله) .

---

١٣ – ينظر : الجدول في إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه – تصنيف / محمود صافي ٦ / ٢٧٣ – الطبعة الأولى – دار الرشيد ١٤١١ هـ / ١٩٩١م .

١٤ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه – تأليف / محيي الدين درويش ٤ / ٣٥٩ – الطبعة الرابعة – دار ابن كثير ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م .

١٥ – ينظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٢ / ٧٨ – الدار التونسية للنشر .

ولعل السر وراء حذف المسند إليه هو الاختصار ؛ لأن فاعل القول وهو لفظ الجلالة (الله) ظاهر ؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا من الله ، ونحن نعلم إن الكلام الذى يحذف منه المسند إليه أخصر وأوجز من نظيره الذى يذكر فيه المسند إليه ، كما أن المسند إليه الذى علم من القرنية والسياق ولم يوجد سر بلاغى يقتضى ذكره ، يصبح ذكره حينئذ بمثابة الزيادة التى لا قيمة لها ، فحذفه يصون الكلام ويبعده عن العبث من منظور البلاغة التى ترى أن ذكر الشىء المعلوم الذى لا يظهر لذكره فائدة ، يعد عبثاً فى الحقيقة والواقع ، ولذلك نجد الخطيب القزوينى فى بداية حديثه عن دواعى حذف المسند إليه يقول :

وأما حذفه فإما لمجرد الاختصار والاحتزاز عن العبث بناء على الظاهر[١٦] .

كما أن حذف المسند إليه خلاف الأصل فتتشوق النفس إلى ذكر الموجب له وفى ذلك دفع إلى إعمال الفكر وتنشيط العقل ، وإثارة الحس حتى يكشف السامع أسرار الحذف معولاً على عقله ، ويدرك المراد من المعانى معتمداً على نفسه ، فإذا وقع على مطلوبه منها كان ذلك أمكن وأرسخ فى نفسه من المعانى التى يجدها واضحة من ظاهر اللفظ ؛ لأن المحصول بعد التعب أعز من المنساق بلا طلب .

ولعل أيضا من أسرار حذف المسند إليه فى هذا المقام تعيين المسند إليه ؛ لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة ، ويكون وضوح المسند إليه لدى المخاطب حقيقياً ؛ لأن قوله (وقيل) فعل ماضى مبنى للمجهول وحذف الفاعل وهو لفظ الجلالة (الله) والتقدير : وقال الله " ولكن لما كان هذا الخبر لا يكون إلا له سبحانه حقيقة جاء الكلام على الحذف ، لتعين المسند إليه حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى قدرته وعظمته وكبريائه فالأمر أمره ،والسماء سماؤه والأرض أرضه والكون كونه ، وكل من على وجه البسيطة يخضع لقدرته وعظمته فهو الذى يقول للشىء كن فيكون .

---

[١٦] – ينظر : الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ٢ / ٤ – تحقيق / خفاجى – الطبعة الثالثة– المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م .

وإذا كـان الأمر كذلك أدركنا أن حذف المسند إليه فى هذه الآية ، كان ابـتداء لغـرض بلاغى بدليل أن ما نحسه عند حذف المسند إليه من جمال القول وقوته ، لا نستشعره عند ذكره .

ولا ننكـر أيـضا أن وراء هذا الحذف أسراراً أخرى ، لم نصل إليها ، ويـصل إليها غيرنا بذوقه وفهمه للآية ؛ لأن هناك أسراراً يدركها المتذوق بقلـبه وجنانه ، وإن لم يفصح عنها بلفظه ولسانه ، ولذلك نجد الإمام عبد القاهر – طيب الله ثراه – ينوه بشأن الحذف ، ويبرز قيمته البلاغية فيقول:

" هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنـك تـرى بـه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفـادة ، وتجـدك أنطـق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن"[١٧] .

وتأمـل دقـة تعبيـر النظم القرآنى ، حيث عبر بلفظ (قيل) أى بأدنى إشـارة بعـد هـلاك أهـل الأرض ، وخلوها من الكافرين ، وتدمير من فى الـسهول والجـبال مـن الخاسرين ، كما أن هذا التعبير " قيل يدل على أنه سـبحانه فى الجلال والعلو والعظمة ، بحيث إنه متى قيل : قيل لم ينصرف العقل إلا إليه ، ولم يتوجه الفكر إلا إليه ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هـذا الوجه على أنه تقرر فى العقول ، أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو "[١٨] .

وقوله : { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي } .

يقـول الإمام الزمخشرى : نادى الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميـز ، علـى لفـظ التخـصيص والإقبال عليهمَا بالخطاب من بين سائر المخلـوقات ، وهو قوله (يا أرض) (ويا سماء) ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل ، من قوله (ابلعى ماءك) ، و(أقلعى) من الدلالة على الاقـتدار العظـيم ، وأن الـسموات والأرض ، وهذه الأجرام العظام منقادة

---

[١٧] – دلائل الإعجاز ص ١٤٦ – تحقيق / محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .

[١٨] – التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرازى ١٧ / ١٨٧ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م .

لتكوينه فيها ما يشاء ، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون ، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم ، وانقيادهم له وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث ، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء [١٩].

ونجد النظم القرآنى قد اختار من بين أدوات النداء ، حرف النداء (يا) الذى يستعمل للبعيد ، وفى ذلك إشارة إلى أنه " لما كان كل شىء دون مقام الجلال والكبرياء والعزة بأمر لا يعلمه إلا الله ، دل على ذلك بأداة البعد"[٢٠].

ولولا هذه الإشارة لجىء بـ (أى) أو الهمزة ؛ لأن الله قريب إلى كل منادى ، وقد قال النحاة أن (يا) تستعمل فى نداء البعيد أو من ينزل منزلته من الساهى والغافل ، وقال ابن هشام: وقد ينادى بها القريب توكيداً [٢١].

ومن يتأمل نداء القرآن الكريم يجد أنه لم يقع فيه نداء بـ (أى) ولم يقع فيه كذلك نداء بالهمزة ، وإنما استعمل فى النداء (يا) وحدها دون غيرها ؛ لأنها أندى وأنفذ ولا ينادى اسم الله إلا بها ، وكذلك لا يقع فى نداء أيتها سواها ، ولا يقدر عند الحذف غيرها نحو قوله تعالى : { يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا }[٢٢].

ولذلك يقول السيوطى " أصل حروف النداء (يا) ولهذا كانت أكثر أحرفه استعمالاً ، ولا يقدر عند الحذف سواها ، ولا ينادى اسم الله – عز

---

١٩ – ينظر : الكشاف للزمخشرى ٢ / ٢٧١ – دار الفكر – وينظر أيضاً : حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٢ / ١٨٤ – طبعة دار إحياء الكتب العربية ، والبحر المحيط لأبى حيان ٦ / ١٦٠ – دار الفكر ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م .

٢٠ – نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى ٣ / ٥٣٣ .

21 – ينظر : شرح المفصل لابن يعيش ٨ / ١١٨ – مكتبة المتنبى ، ومغنى اللبيب لابن هشام ١ / ١٩ ، ٢٠ – تحقيق / محمد محيى الدين عبدالحميد – المكتبة العصرية ١٤١١ هـ / ١٩٩١م .

22 – من الآية ٢٩ من سورة يوسف .

وجـل – واسـم المستغاث وأيها وأيتها إلا بها ولا المندوب إلا بها ، أو بـ (وا) [٢٣].

ومن ينعم النظر فى النظم القرآنى السابق ، يجده قد اشتمل على ألوان بلاغية كثيرة ، جمعت بين علم المعانى وعلم البيان وعلم البديع .

فقوله { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ } أى اجذبى من غير مضغ إلى مكان خفى بالتدريج ، ونلاحظ أن المفعول قد ذكر ولم يحذف وهو (ماءك) ، ولعل السر وراء تعيين المبلوع ، لئلا يعم ، فتبتلع كل شىء على ظهرها من جبل وغيره ، ولذلك أفرد ولم يجمع فقال (ماءك) أى الذى تجدد على ظهرك للإغراق ، ليكون ذلك كالغذاء للآكل الذى يقوى بدنه به ، فيقوى به على الإنبات وسائر المنافع ، وجعله ماءها ، لاتصاله بها اتصال الملك بالمالك [٢٤].

وجاء لفظ (ماءك) بالإفراد دون الجمع " لما كان فى الجمع من صورة الاستكثار المتأتى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت " [٢٥].

وقيل : السر فى إفراد الماء : الإشعار بأن هذا الماء لم يحصل من اجتماع المياه وتكاثرها بل هو نوع واحد حصل بقدرته تعالى دفعة واحدة [٢٦].

وقوله : (ماءك) أى ما على وجهك من ماء الطوفان ، وعبر عنه بالماء بعد ما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى ؛ لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل [٢٧].

والخطاب فى قوله { يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى } كان مثار خلاف فى تأويله بين العلماء ؛ لأن المخاطب بالقول الإلهى قد يكون موجوداً

---

٢٣ – الأشباه والنظائر فى النحو ٢ / ١٣٠ – الطبعة الثانية – دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٦٠ هـ .

٢٤ – ينظر : نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام للبقاعى ٣ / ٥٣٣ – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م .

٢٥ – التحرير والتنوير ١٢ / ٨١ .

٢٦ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٧٠ .

٢٧ – ينظر : روح المعانى للآلوسى ١٢ / ٦١ – الطبعة الرابعة – دار إحياء التراث العربى – بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

كهذه الآية التى نحن بصدد تحليلها ، فالأرض والسماء موجودتان ، وقد يكون معدوماً ، كقول الله تعالى فى سورة فصلت : – على ما سيأتى تحليله فى موضعه إن شاء الله – { ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أو كَرْهًا } [٢٨] ، إذ لو كانت موجودة كما يقول الرازى لكان المعنى يا موجود كن موجوداً ، وذلك لا يجوز [٢٩] .

وقد نقل الإمام الطبرى فى هذه القضية وأمثالها ثلاثة آراء :

الرأى الأول : قال : إن القول حقيقى فى الموجود ، ويحمل عليه خطاب المعدوم تخصيصاً ، ثم قال : إنه تخصيص من غير مخصص .

الرأى الثانى : قال : لا قولَ هناك بل جاء على الأسلوب العربى كقول الراجز :

امتلأ الحوض وقال قطنى ∴ سلا رويداً قد ملأت بطنى

الرأى الثالث : كأنه رد على الأول أو إكمال له ، وهو أنه لا ضير فى خطاب المعدوم ؛ لأنه فى علم الله موجود ، وقد رجح هذا الرأى [٣٠] .

والإمام الزمخشرى مال إلى الرأى الثانى بأن الخطاب تمثيل عن تصوير عظمة الله فى مخلوقاته ، بحيث إذا وجه إليها أمر تنفذه بدون تردد ولا توقف ولا امتناع [٣١] .

وتبعه فى ذلك الرأى الشيخ البيضاوى والعلامة الشهاب ، حيث قالا : نوديا بما ينادى به أولى العلم ، وأمرا بما يؤمرون تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالآمر المطاع ، الذى يأمر المنقاد لحكمه

---

[٢٨] – من الآية ١١ من سورة فصلت .

[٢٩] – ينظر : التفسير الكبير ٢٧ / ٩١ .

[٣٠] – ينظر : تفسير الطبرى ١ / ٤٠٤ : ٤٠٦ .

[٣١] – ينظر : الكشاف ٢ / ٢٧١ .

للمبادرة إلى امتثال أمره ، مهابة من عظمته ، وخشية من أليم عقابه [٣٢] .

ولعل الرأى الراجح أن يكون الخطاب من باب الحقيقة ، وليس هناك مانع عقلاً ولا شرعاً ؛ لأن كل شيء خلقه ، وهو على كل شيء قدير .

ولذلك نرى ابن تيمية يقول : المخلوق قبل أن يخلق كان معلوماً مخبراً عنه مكتوباً ، فالذى يقال له كن هو الذى يراد ، وله ثبوت وغيره فى العلم والتقدير ، وليس بممتنع خطاب المعلوم المذكور المكتوب إذا كان توجيه خطاب التكوين إليه قبل توجيه الإرادة إليه[٣٣] .

ونجد أيضاً الإمام الطبرى يقول : ولا يجوز أن يحمل القول على المجاز لتأكيد الفعل بمصدره أو المصدر بالمصدر ، إذ أن هذه أمارة الحقيقة وهى حقيقة خاصة تليق بجلال الله وصفاته المقدسة [٣٤] .

كذلك الإمام أبو حيان يلاحظ فى هذه الأساليب قوة الكناية الدالة على المقدرة وانفعال المأمور فى لحظة خارقة [٣٥] .

فأبو حيان جعل ذلك من باب الكناية المصورة لعظمة الله وقدرته ؛ لأن الكناية لا تمنع إرادة المعنى الحقيقى المناسب لما يليق بجلال الله ، وفى ذلك تعضيد لما ذهبنا إليه من أن الرأى الراجح أن يكون الخطاب من باب الحقيقة حتى وإن كنا نجهل هذه الحقيقة بل إن الجهل بهذه الحقيقة أدعى لعدم صرف الكلام إلى المجاز ؛ لأن المجاز لا يصح أن ننتقل إليه إلا إذا استحال الحمل على الحقيقة المعلومة ، فإذا كنا نجهل حقيقة خطاب الله للأرض والسماء ، فكيف ننتقل من الحقيقة المجهولة إلى المجاز ، والمجاز لابد أن يكون معدولاً إليه عن حقيقة معلومة مستحيلة الوقوع فى هذا المقام .

---

٣٢ - ينظر : البيضاوى ضمن حاشية الشيخ زاده ٣ / ٤٧ - المكتبة الإسلامية - دار صادر - بيروت - ، وحاشية الشهاب ٥ / ١٠١ - دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٣٣ - ينظر : دقائق التفسير لابن تيمية ٣ / ٥١٣ .

٣٤ - ينظر : تفسير الطبرى ١ / ٤٠٦ .

٣٥ - ينظر : البحر المحيط ١ / ٤٤٦ ، ٢ / ٢٥٠ .

كما أن هذا الخطاب الذى وجهه المولى – سبحانه وتعالى –إلى الأرض والسماء { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ } و { ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي } وهما من الجمادات ، مشعر بحسب الظاهر على أن أمره وتكليفه نافذ فى الجمادات ، فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك ، فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى [٣٦] .

وفى لفظ (ابلعى) استعارة تصريحية تبعية ؛ لأن أصل البلع : اجتياز الطعام والشراب إلى الحلق بدون استقرار فى الفم[٣٧] ، وهو هنا مستعار لنشف الأرض الماء ، فشبه نشف الأرض الماء وشربه فى بطنها بالبلع بجامع الذهاب إلى مقر خفى فى كل ، واشتق من البلع فعل الأمر (ابلعى) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وفى لفظ (أقلعى) استعارة أيضا ، حيث استعار إقلاع السماء لكف نزول المطر منها ؛ لأنه إذا كف نزول المطر لم يُخلف الماء الذى غار فى الأرض [٣٨] .

والعلامة الشهاب يقول : إن فى النظم استعارة تمثيلية ، حيث شبهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرته على رد ما انفجر من الأرض إلى بطنها وقطع طوفان السماء ، وتكوّن ما أراده فيها ، كما أراد بالهيئة المنتزعة من الآمر المطاع الذى يأمر المنقاد لحكمه ، فعلى هذا يكون التعبير استعارة واحدة[٣٩] .

ولا يخفى أيضا المناسبة اللفظية بين (ابلعى) و (أقلعى) كذلك بينهما جناس ناقص ، ويسميه بعضهم المضارعة ، ويكون أنواعاً منها أن يختلف حرف فى الكلمتين ، بعد أن تتفق بقية الأحرف

كما أن هناك طباقاً بين لفظ (السماء) و (الأرض) .

---

٣٦ – ينظر : التفسير الكبير للرازى ١٧ / ١٨٧ .
37 – ينظر : لسان العرب ١ / ٤٨٥ (بلع) .
٣٨ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٧٨ .
٣٩ – ينظر : حاشية الشهاب ٥ / ١٠١ .

كذلك يوجد مجاز مرسل في قوله (يا سماء) ؛ لأن الحقيقة : يا مطر السماء أقلعي ، والعلاقة في هذا المجاز المجاورة ؛ لأن المطر مجاور للسماء .

وتأمل دقة النظم القرآني حيث قدم الأمر بالبلع على الإقلاع ؛ لأنه " السبب الأعظم لغيض الماء " [٤٠]، وقدم أمر الأرض على السماء ، لابتداء الطوفان منها .

وإفراد لفظ (أرض) إشارة إلى شمول هذا الماء الكل بحيث صار الكل بمثابة شيء واحد باعتبار هذا الشمول ، وأيضا إفراد (سماء) إشارة إلى أن المراد بها هاهنا جهة العلو الذى لا يكتنه مداه إلا الأجرام العلوية [٤١] .

والأمر الذى في قوله (ابلعي) و (أقلعي) أمر التكوين ، كما نص على ذلك الطاهر بن عاشور [٤٢] ، ويلاحظ فيه الوجوب والإلزام .

وتأمل دقة النظم القرآني ، حيث اختار لاحتباس المطر (أقلعي) والإقلاع هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان من المطر أو الفعل .

واختير لفظ (ابلعي) على ابتلعي لكونه أخصر ، ولمجيء خط التجانس بينه وبين أقلعي أوفر [٤٣] .

كما أن سبب اختيار لفظ (ابلعي) على (ابتلعي) ؛ لأن لفظ (ابتلعي) يدل على الكراهية ، وكأنها تفعل هذا الشيء وهو ابتلاع الماء وهي متضجرة وكارهة – وحاشاه ذلك – فكل مخلوقاته – سبحانه وتعالى – تخضع لقدرته وعظمته وهي تحت طوع إرادته ومشيئته ولذلك إذا تأملنا لفظ (ابلعي) نجده يدل على السهولة في البلع وكأن لمجرد صدور الأمر من الواحد القهار تم كل شيء ولم يبق قطرة ماء على وجه الأرض .

---

٤٠ – التحرير والتنوير ١٢ / ١٨ .
٤١ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٧٠ .
٤٢ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٧٨ .
٤٣ – ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤١٩ – تحقيق / نعيم زرزور – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

ونلاحظ أن النظم القرآنى صرح بالمفعول أولاً فى قوله { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ } وبينا السر فى ذلك ولكن فى الجملة الثانية حذف المفعول فجاء التعبير هكذا ، ويا سماء أقلعى لأنه بين المراد فى الجملة الأولى ، فحذف المفعول من الجملة الثانية احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، أو لعل سر الحذف أن تذهب نفس السامع فى تخيل المفعول كل مذهب بتصور حال نزول المطر الشديد من برق ورعد ورياح وغير ذلك .

وعطفت جملة (ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) على الجملة التى قبلها (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) للتوسط بين الكمالين ؛ لأن الجملتين إنشائيتان لفظاً ومعنى ، ولكون الحديث فى معنى واحد ، لذلك كان ادعى إلى الاتصال ، وهذا ما صرح به الإمام عبد القاهر الجرجانى ، حيث أخبر فى باب الفصل والوصل ، بأنه لا يصح الوصل فى الجمل " حتى يكون المعنى فى هذه الجملة لفقا لمعنى فى الأخرى ، ومضاماً له مثل : إن زيداً وعمراً إذا كان أخوين أو نظيرين ، أو مشتبكى الأحوال على الجملة كانت الحال التى يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضمومة فى النفس إلى الحال التى عليها الآخر من غير شك ، وكذلك السبيل أبداً والمعانى فى ذلك كالأشخاص " [٤٤].

ولا يفوتنا أن نشير إلى هذه المقابلة اللطيفة فى قوله { يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ } و { ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي } حيث قابل بين الأرض والسماء ، وقابل بين البلع والإقلاع ، فهى مقابلة اثنين باثنين .

كذلك تأمل مجىء النظم القرآنى بقوله (وقيل يا أرضُ) ولم يقل (يا أرضى) بإضافتها إلى ياء المتكلم ؛ لأن الإضافة إلى نفسه جل شأنه تقتضى تشريفاً للأرض وتكريماً لها ، فترك إمداداً للتهاون لم يقل يا أيتها الأرض مع كثرته فى نداء أسماء الأجناس ، قصداً إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التى لا تناسب ذلك المقام [٤٥].

ونلاحظ أيضا دقة التعبير فى النظم القرآنى ، حيث قدم النداء على الأمر فقال : (يا أرض ابلعى) و (يا سماء اقلعى) دون أن يقال : ابلعى يا

---

٤٤ – دلائل الإعجاز ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
٤٥ – روح المعانى للآلوسى ١٢ / ٦٥ .

أرض ، واقلعى يا سماء : جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقيبه فى نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيح [٤٦].

وقبل أن نترك هذا التعبير{ وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى } الذى تزاحمت عليه النكات البلاغية ، هناك أمرٌ آخر يستدعى التوقف عنده من أجل أن نعرف سره البلاغى حيث نلاحظ أن لفظ (الأرض) فى القرآن الكريم كله جاء مفرداً وليس جمعاً ، ولفظ (السماء) مرة جاء جمعاً على (السماوات) ، ومرة جاء بالإفراد .

والسبب يكمن فى طريقة اختيار الكلمة المناسبة للمقام ، والأليق فى التعبير ، والأخف على اللسان ، وازن بين كلمة (السماوات) وكلمة (أرضون) فأيهما أخف على اللسان وأوقع فى السمع ؟

ولذلك قيل : إن هناك فارقاً لفظياً وفارقاً معنوياً :

فأما الفارق اللفظى فإنه لو جمع (أرض) على قياس جموع التكسير لقيل (آرض) على قياس (فَلْسٌ) أو (آراضى) على قياس (جمل وأجمال) و (أروض) على قياس (فَلْسٌ وفُلوسٌ) ، فاستثقلوا هذه الجموع كلها ، إذ ليس فيها من الفصاحة والحسن والعذوبة ما فى لفظ (السماوات) ولهذا الثقل المشاهد فى جمع (أرض) تفادى القرآن جمعه .

وأما المعنوى : فالأرض هى دار الدنيا التى هى بالإضافة إلى الآخرة شىء قليل ، كما يدخل الإنسان أصبعه فى اليم والله سبحانه وتعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللاً لها ومحقراً لشأنها ، ولذلك لم تجمع (أرض) إذ الجمع فيه معنى التعظيم .

وأما (السماوات) فهى مقر الملائكة ومحل دار جزائه ، ومهبط ملائكته ووحيه .

ولكن متى يفرد لفظ السماء ومتى يجمع فى أساليب القرآن ؟

---

[٤٦] – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٨٢ .

من يتتبع أساليب القرآن والتعبيرات فيه يجد أنه إذا أريد الوصف المطلق للسماوات بالعلو والارتفاع أو قصد منه الجهة أفرد لفظ السماء بحسب ما يتصل به من الكلام السابق ، وإذا كان المقصود ذوات السماوات بأعدادها الكثيرة أتى بصيغة الجمع إذ المقصود ذواتها لا مجرد العلو والفوق ، فأفرد لفظ السماء هنا في قوله : { ويا سماء أقلعي } لأن المراد الوصف الشامل والفوق المطلق وليس المراد سماء معينة مخصوصة[٤٧] .

وبعد أن وجه المولى – سبحانه وتعالى – خطابه إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، واستجابت كلتاهما للأمر الفصل ، فبلعت الأرض ماءها ، وكفت السماء وأمسكت ، جاء قوله { وغِيضَ المَاءُ } أى نقص ونضب يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل والمراد به هنا : الماء الذى نشأ عن الطوفان ابتلعته الأرض فى جوفها وغار من سطحها [٤٨].

وهذا التعبير (وغيض الماء) يدل على " حصول المأمور به من السماء والأرض معاً ، أى فامتثلا ما أمرا به ونقص الماء " [٤٩].

وقوله (وغيض الماء) يشتمل على لون بلاغى يسمى التعليل (فإنه علة للاستواء) [٥٠].

ولم يصرح جل وعلا بمن غاض الماء ، لسبيل الكناية ؛ لأن تلك الأمور العظام لا تصدر إلا من ذى قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته هو الذى غاض الماء .

كما أن الفعل إذا تعين لفاعل بعينه ، استتبع لذلك أن يترك ذكره ، ويبنى الفعل لمفعوله ، أو يذكر ما هو أثر لذلك الفعل على صيغة المبنى للفاعل ، ويسند إلى ذلك المفعول ، فيكون كناية عن تخصيص الصفة التى

---

٤٧ – ينظر : من أسرار التعبير فى القرآن (صفاء الكلمة) – د / عبد الفتاح لاشين ص ١٢٢ – ١٢٣ – دار المريخ للنشر – الرياض – ط ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

٤٨ – ينظر : تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٣ / ٣٦ – دار الفكر ، وروح المعانى ١٢ / ٦١ .

٤٩ – حاشية الشهاب ٥ / ١٠١ – ١٠٢ .

٥٠ – التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج – أ . د / وهبه الزحيلى ٢ / ٧٣ – دار الفكر .

هـــى الفعـــل بموصـــوفها وهـــذا أولـــى ممـــا قـــيل فـــى تقريـــر الكناية هنا [٥١].

كمـــا أن هـــذا التعبيـــر (وغيض الماء) يشتمل على لون بلاغى آخر يـــسمى الإشـــارة [٥٢] فإنـــه عبـــر به عن معان كثيرة ؛ لأن الماء لا يغيض حتـــى يقلـــع مطـــر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها ، فينقص ما على وجه الأرض [٥٣].

ثم جاء التعبير بقوله (وقضى الأمر) أى أنجز ما وعد الله تعالى نوحاً – عليه السلام – من إهلاك كفار قومه وإنجائه بأهله المؤمنين [٥٤].

وتأمل الإرداف [٥٥] الذى فى قوله (وقضى الأمر) أى هلك من قضى الله هلاكـــه ، ونجـــا مـــن قـــضى نجاته ، وإنما عدل عن هذه الحقيقة إلى لفظ الإرداف ، للإيجاز والتنبيه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجى كان بأمر آمر مطـــاع وقـــضاء من لا يرد قضاؤه ، والأمر يستلزم آمر وقضاؤه يدل على قدرة الآمر به وطاعة المأمور تدل على قدرة الآمر وقهره ، وإن الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الأمر ، ولا يحصل ذلك كله من اللفظ الخاص [٥٦].

---

٥١ – ينظر : روح المعانى ١٢ / ٦٥ .

٥٢ – وهو أن يكون اللفظ القليل دالاً على الكثير من المعانى حتى تكون دلاله اللفظ بمـــثابة الإشـــارة باليد أو والإيماءة بالحاجب والعين فإنها تشير بحركة واحدة سريعة إلى أشياء كثيرة تستوعب العبارات الطويلة . ينظر : بديع القرآن ص ٨٢ .

٥٣ – ينظر : روح المعانى للآلوسى ١٢ / ٦٧ .

٥٤ – ينظر : الكشاف ٢ / ٢٧١ ، وتفسير أبى السعود ٣ / ٣٦ ، وفتح البيان فى مقاصـــد القـــرآن لأبـــى الطـــيب القنوجى البخارى ٦ / ١٨ – المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٢ هـــ / ١٩٩٢م .

٥٥ – والإرداف هـــو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له ولا بلفـــظ الإشـــارة الـــدال على المعانى الكثيرة ، بل بلفظ هو ردف المعنى الخـــاص وتابعه قريب من لفظ المعنى قرب الرديف من الردف . ينظر : بديع القرآن ص ٨٣ .

٥٦ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٦٢ .

ومن الجدير بالذكر : إن ابن أبى الإصبع يسمى ذلك تمثيلاً إذ يقول : " والتمثيل فى قوله تعالى { وقُضِيَ الأمْرُ } فإنه عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ فيه بعد عن لفظ المعنى الموضوع له " [٥٧].

ويلاحظ أيضا أن النظم القرآنى جاء على حذف الفاعل وهو المسند إليه، وحذفه تنبيهاً على أن تلك الأمور العظام لا يتصور وقوعها إلا من قادر لا يكتنه وقهار لا يغالب وقيل أيضا فى وجه العدول عن التصريح بالفاعل ، إشارة إلى أن هذه الأمور أهون عند الله تعالى من أن ينسبها إلى قدرته صراحة [٥٨].

وقد يكون فى لفظ (قضى) استعارة تبعية ، حيث استعار القضاء للفراغ ، أشار إلى هذا المعنى الشيخ زادة فقال : " قوله : وأنجز ما وعد الله " يعنى أن القضاء بمعنى الفراغ كأنه قيل : تم أمرهم وفرغ من إهلاكهم، وفى الصحاح وقد يكون القضاء بمعنى الفراغ ، يقال قضيت حاجتى ، وضربه فقضى عليه ، أى قتله ، كأنه فرغ منه وسهم قاض أى قاتل " [٥٩].

كما أن قوله (وقضى الأمر) يفيد : " أن الذى قضى به وقدره فى الأزل قضاء جزماً حتماً فقد وقع تنبيها على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته وأنه لا دافع لقضائه ، ولا مانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه " [٦٠].

فإن قيل : كيف يليق بحكمة الله تعالى أن يغرق الأطفال ، بسبب جرم الكفار ؟

<u>فالجواب عن هذا السؤال من وجهين :</u>

الأول : قيل : إن الله تعالى أعقم أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة ، فلم يغرق إلا من بلغ سنه إلى الأربعين .

---

٥٧ – تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى ٦١١ – تحقيق : د / حفنى محمد شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م .
٥٨ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٦٩ ، ٣٧٠ .
٥٩ – حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى ٣ / ٤٧ .
٦٠ – تفسير الرازى ١٧ / ١٨٧ .

والثانـــى : وهـــو الحـــق : أنه لا اعتراض على الله تعالى فى أفعاله { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلونَ }[٦١] [٦٢].

وتأمـــل دقة النظم القرآنى ، حيث قال (وقضى الأمر) دون أن يقال : أمر نوح ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك أو لأن اللام بدل من المضاف إليه كما هو مذهب الكوفة ، وأما لأنها تغنى غناء الإضافة فى الإشارة إلى المعهود [٦٣].

ويلاحـــظ أيـــضا أن قوله (وقضى الأمر) إيجاز بالقصر ؛ لأن قوله (وقضى الأمر) " إشارة إلى جميع القصة : بعث الماء وإهلاك الأمم ، وإنجاء أهل السفينة " [٦٤].

وقـــوله : { واسْـــتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ } الضمير فيه يعود على السفينة ، والجـــودى جـــبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل ، وقيل هو جبل بالشام .

أى : واســـتقرت الـــسفينة التى تحمل نوحاً والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم [٦٥].

وسبب تخصيص استوائها على جبل الجودى " إن الله أوحى إلى الجبال أن الـــسفينة ترســـى علـــى واحد منها ، فتطاولت وبقى الجودى لم يتطاول تواضعاً لله فاستوت السفينة عليه وبقيت على أعوادها " [٦٦].

وحكمة إرسائها على جبل ، أن جانب الجبل أمكن لاستقرار السفينة عند نـــزول الـــراكبين ؛ لأنها تخف عندما ينزل معظمهم ، فإذا مالت استندت إلى جانب الجبل [٦٧].

---

٦١ – الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .
٦٢ – تفسير الرازى ١٧ / ١٨٧ ، ١٨٨ .
٦٣ – ينظر : مفتاح العلوم للسكاكي ص ٤٢٠ .
٦٤ – المحـــرر الوجيز لابن عطية ٣ / ١٧٥ – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى محمـــد – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٣ هـــ / ١٩٩٣م .
٦٥ – ينظر : الكشاف ٢ / ٢٧١ ، والتفسير الوسيط ٧ / ٢١٠ .
٦٦ – حاشية الصاوى ٢ / ١٨٤ .
٦٧ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٧٩ .

وتأمل دقة النظم القرآنى ، حيث صرح باسم الجبل الذى استقرت عليه السفينة ، وهذا يدل على أن الانتقام العام قد مضى وما بقى إلا الجود بالماء والخير والخصب والرحمة العامة ، وهو الجبل بالموصل بعد خمسة أشهر[٦٨].

واختار النظم القرآنى (استوت) على (سويت) أى : أقرت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول ، اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على صيغة المبنى للفاعل فى قوله { وهِيَ تَجْرِي بِهِمْ } مع أن (استوت) أخصر من (سويت)[٦٩].

واستواء السفينة على هذا الجبل ، كان " دليلاً على انقطاع مادة ذلك الماء ، وكان ذلك الاستواء يوم عاشوراء "[٧٠].

وفى هذا النظم (واستَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ) حذف للمسند إليه وهو السفينة وحذف للعلم به ، ومن يتأمله أيضا يجد فيه تمثيلاً ؛ لأن التمثيل هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الخاص ولا بلفظى الإشارة والإرداف ، بل بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف قليلاً ، يصلح أن يكون مثلاً للفظ الخاص لأن المثل لا يشبه المثل من جميع الوجوه ، ولو تماثل المثلان من كل الوجوه لا تحدا ، قوله (واستوت على الجودى) حقيقته : وجلست على ذلك المكان ، فعدل عن الحقيقة إلى التمثيل لما فى الاستواء من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل ولا حركة معه ولا اضطراب[٧١].

مع إن ابن أبى الإصبع يسمى ذلك إردافاً حيث يقول " والإرداف فى قوله تعالى (واستوت على الجودى) فإنه عبر عن استقرارها بهذا المكان وجلوسها جلوساً متمكنا لا زيغ ولا ميل بلفظ قريب من لفظ المعنى "[٧٢].

---

٦٨ – ينظر : نظم الدرر ٣ / ٥٣٣ .

٦٩ – ينظر : تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقنى البروسوى ٤ / ١٣٥ – الطبعة السابعة – دار إحياء التراث العربى – بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

٧٠ – تفسير الرازى ١٧ / ١٨٨ .

٧١ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٦٧ .

٧٢ – تحرير التجبير ٦١١ ، ٦١٢ .

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله { وقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } أى : هلاكاً وسحقاً وطرداً من رحمة الله – تعالى – للقوم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية.

والقائل (بعداً) قد يكون من قول الله جريا على طريقة قوله {وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ} ويجوز أن يكون من قول سيدنا نوح والمؤمنين ، تحقيراً للكفار وتشفيا منهم واستراحة ، فبنى فعل (وقيل) إلى المجهول ، لعدم الحاجة إلى معرفة قائله [٧٣] – ورجح ابن عطية أن يكون هذا الكلام من قول الله[٧٤] .

وفى التعبير بقوله (بعداً) استعارة ؛ لأن (بعداً) هو من بعد – بالكسر مراداً به البعد من حيث الهلاك – فإن حقيقته بعد بعيد لا يرجى منه عود ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء ، وعبر بالمصدر لتعليقه باللام الدالة على الاستحقاق والاختصاص [٧٥] .

وفى قوله : (وقيل بعداً للقوم الظالمين) تعريض لمن يسلك مسلكهم فى تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم لا غير ، وإظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه ، وأن قيامة الطوفان ، وتلك الصورة الهائلة إنما كانت لظلمهم [٧٦] .

واللام فى قوله (للقوم) متعلق بفعل محذوف على سبيل البيان ، كما فى نحو سقيا لك ، وهيت لك ، ويحتمل أن يتعلق بقوله (قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول [٧٧] .

وتأمل دقة التعبير القرآنى حيث قال (بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد مع الاختصار وهو نزول (بعداً) منزلة ليبعدوا بعداً ، فضلاً عن أن استعمال اللام مع (بعداً) الدال

---

٧٣ – ينظر : التفسير الكبير للرازى ١٧ / ١٨٨ ، والتحرير والتنوير ١٢ / ٧٩ ، ٨٠ .

٧٤ – ينظر : المحرر الوجيز ٣ / ١٧٦ .

٧٥ – ينظر : حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٢ / ٤٠٠ ، ونظم الدرر ٣ / ٥٣٤ .

٧٦ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٨١ .

٧٧ – ينظر : حاشية الشيخ زادة ٣ / ٤٧ .

على معنى أن البعد يحق لهم [٧٨] " مع فائدة أخرى هى الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام " [٧٩].

وقوله (وقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فيه إيجاز بالحذف ؛ لأن (بعداً) مفعول مطلق لفعل محذوف ، أى ابعدوا أو بعدوا على الدعاء

ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم فى تكذيب الرسل [٨٠].

كذلك تأمل الاحتراس الجميل فى الدعاء ، عندما قال – سبحانه – { وقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه ، شمل من لا يستحق الهلاك فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق.

ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك ، وللإيحاء إلى قوله { ولا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا } [٨١].

وهكذا نجد أن الألوان البلاغية فى هذه الآية الكريمة قد تضافرت وتآزرت ، وكان لكل لون بلاغى وقعه فى السياق القرآنى ، حتى بدت الآية الكريمة كلوحة فنية جميلة رائعة ، ساعد كل لون من الألوان البلاغية ، على إبراز ما فيها من جمال وروعة .

بل إننا إذا عاودنا النظر فى هذه الآية نجدها تشتمل على ألوان بلاغية أخرى ، حيث اشتملت على فن المساواة ، وهو الذى يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ، وهو من أعظم أبواب البلاغة بل هو البلاغة عينها ، والآية التى نحن بصددها خير مثال لهذه المساواة ، فإنه سبحانه أراد اقتصاص من هذه القصة بأوجز لفظ وأبلغه ، فجاء بها مرتبة الألفاظ والجمل على حسب ما وقع فى صور لا تفصل عن معانيها ولا تقصر عنها فإن قيل : لفظة (القوم) زائدة تمنع الآية من أن توصف بالمساواة ؛

---

٧٨ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٨٢ .
٧٩ – روح المعانى ١٢ / ٦٦ .
٨٠ – ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٨٢ .
٨١ – من الآية ٣٧ من سورة هود .

لأنهـــا إذا حـــذفت اســـتقل الكـــلام بـــدونها ، بحـــيث يقـــال (وقيل بعداً للظالمين) .

قلت : لا يستغنى الكلام عنها ، وذلك أنه لما قال فى أول القصة { وكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ } وقال بعد ذلك { ولا تُخَاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } جاءت لفظة القوم فى آخر القصة ، ووصفهم بالظلم ، ليرتد عجز الكلام على صدره [٨٢] .

وتأمـــل حسن النسق[٨٣] فى هذه الآية ، فالآية من أولها إلى آخرها من شواهد هذا الفن ، فقد ترادفت الجمل منسوقة بعضها على بعض بواو النسق علـــى الترتيب الذى تقتضيه البلاغة ؛ لأنه سبحانه بدأ بالأهم إذ كان المراد إطـــلاق أهل السفينة من سجنها ، لا يحصل ذلك ولا يتأتى إلا بانحسار الماء عـــن الأرض ، فلذلك بدأ بالأرض ، فأمرها بالابتلاع ، وثنى بالسماء فأمرها بالإقلاع لئلا يتأذى بذلك أهل السفينة ، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ماء الأرض وانقطـــع مـــاء السماء ، ثم قال : (وقضى الأمر) أى هلك من جفّ القلـــم بهلاكـــه ، ونجا من سبق العلم بنجاته ، وهذه حقيقة المعجزة ، وكنه الآيـــة ، ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة ، ولا يتسنى علمهم بها إلا بعد خـــروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم ، فلذلك اقتضت البلاغة أن تأتـــى هـــذه الجملة رابعة الجمل وكذلك استقرار السفينة على الجودى ، أى اســـتقرارها على المكان الذى استقرت عليه استقراراً لا حركة معه ، لتبقى آثارهـــا آية لمن يأتى بعد أهلها وعدل عن لفظة استقرت على لفظة استوت لمـــا يحـــتمله الاستقرار من الزيغ والميل ويدل عليه الاستواء من استقامة وعدم انحراف وفى هذا طمأنينة أهل السفينة ، وأمنهم بعد المخافة وإفراغ روعهـــم ، إذا كانـــت استقراها استقراراً فقط ، بحيث لا تؤمن معه الحركة لكانـــت حالهم فى مكابدة الحركة واضطراب القلوب ووجيفها واحدة فى حال ســـيرها ووقـــوفها ، ثم قال أخيراً (بعداً للقوم الظالمين) وهذا دعاء أوجبه

---

٨٢ – ينظر : بديع القرآن ص ٨٠ .

٨٣ – وهـــو عـــبارة عن أن يأتى المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر – متتالـــيات مـــتلاحمات تلاحماً مستحسناً لا معيباً مستهجناً . ينظر : بديع القرآن ص ١٦٤ .

الاحتـــراس ممـــن يظن أن الغرق لشموله الأرض ربما أودى بمن لا يستحق العـــذاب فدعا على الهالكين ووصفهم بالظلم ، ليعلم أن الهلاك إنما شمل من يـــستحق العـــذاب دون سواهم ، احتراساً من هذا الاحتمال [٨٤]. كما أن هذه الآيـــة تشتمل على فن التنظير[٨٥] ؛ لأنها تناولت قصة الطوفان التى انطوت علـــى الكثيـــر مـــن العقد والحلول والعبر فإذا نظرتها بغيرها من القصص ، وجـــدتها ســـامية علـــيها جمـــيعاً باستقـــصاء جمـــيع مـــا اتفـــق فـــيها وما سنح [٨٦].

كمـــا أن هـــذه الآية اشتملت على فن التسهيم ؛ لأن أول الآية يقتضى آخـــرها ، والتـــسهيم أن يكون ما تقدم من الكلام دليلاً على ما يتأخر منه أو بالعكس [٨٧].

واشتملت أيضا على فن التهذيب ؛ لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحـــسن ، وكـــل لفظة سهلة مخارج الحروف ، سلمت من التنافر والغرابة ومخالفة القياس [٨٨].

أرأيـــت آيـــة واحـــدة كم جمعت من فنون البلاغة وكم حوت من إعجاز التعبيـــر القرآنى الدقيق ، فكل كلمة فى الآية قد اختيرت اختياراً بالغاً ، وكل لفظـــة قـــد وضعت فى مكانها الذى هو أحق بها من غيرها وهى أحق به ، وهـــذا ما أشار إليه بعضهم بقوله " لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد " [٨٩].

فأى بلاغة تصل إلى بلاغة هذا الأسلوب القرآنى الموجز المعجز ، ولذا يقـــول الخطاب " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة ، لفظ حامل ، ومعنى

---

٨٤ – وحـــده أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقى المعانى أو مختلفى المعانى ليظهر الأفضل منهما . ينظر : بديع القرآن ص ٢٣٨ .

٨٥ – ينظر : بديع القرآن ص ١٦٥ .

٨٦ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٤ / ٣٦٥ .

٨٧ – ينظر : بديع القرآن ص ١٠٠ .

٨٨ – ينظر : المرجع السابق ص ١٥٨ .

٨٩ – قال ابن عطية فيما نقله عنه السيوطى فى كتابه الإتقان ٤ / ٩ – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – نشر وتوزيع دار التراث – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م .

قـــائم ، وربـــاط لهمـــا نـــاظم ، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب مـــن ألفاظـــه ، لا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأمـــا المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقـــد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ، فأما إن توجد مجموعة من نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحـــاط بكـــل شـــىء علماً ، وأحصى كل شىء عددا ، فتفهم الآن واعلم أن القـــرآن إنما صار معجزاً ؛ لأنه جاء بأفضل الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعانى " [٩٠].

ولا يفوتـــنا أن نذكر كلام الإمام عبد القاهر عن هذه الآية حيث تعرض لهـــا فـــى معرض حديثه عن النظم واعتبرها دليلاً واضحاً على أن الكلمة لا يظهـــر حـــسنها ومعناها وفصاحتها إلا إذا اعتبرنا مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعانى جارتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها ، وكلامه فى هذه الآيـــة جديـــر أن يذكـــر حيث قال : " وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى { وقـــيل يـــا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر ، واســـتوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين } فتجلى لك منها الإعجاز وبهـــرك الـــذى تـــرى وتـــسمع أنـــك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لـــم يعـــرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالـــرابعة ، وهكـــذا إلى أن تستقريها إلى آخرها وأن الفضل تناتج ما بينها وحـــصل من مجموعها إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت مـــن بـــين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما يؤديه وهى فى مكانها من الآيـــة ؟ قل : (ابلعى) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها ، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها .

---

[٩٠] – البـــيان فـــى إعجـــاز القـــرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٧ – دار المعارف .

وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بـ (يا) دون (أى) نحو : (يا أيتها الأرض) ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال : ابلعى الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء ، وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : { وقضى الأمر } ، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودى) ثم إضمار السفينة قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة (قيل) فى الخاتمة بـ (قيل) فى الفاتحة ، أفترى لشىء من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة ، تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب ؟ فقد اتضح إذا اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإن الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ "[٩١] .

الموضع الثانى :

فى سورة فصلت : {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } الآيتان ١١ ، ١٢ .

---

[٩١] – دلائل الإعجاز ص ٤٥ ، ٤٦ .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها :

بعد أن أمر الله تعالى بتوحيده فى الألوهية والربوبية ، أردفه بما يدل على وجوده ، وهو الخلق الأول للأرض والسماء ، وكيف أن جميع المخلوقات تخضع لقدرته وسلطانه ، فها هى السماء والأرض لما وجه إليهما أمر الإتيان ، أجابتا بقولهما : أتينا طائعين .

من الأسرار البلاغية فى الآيات :

بدأت هذه الآيات بحرف العطف " ثم " الذى يدل على التراخى والمهلة ، وهذا الحرف يدل أيضاً " على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها ، فإن خلق السموات أعظم من خلق الأرض، وعوالمها أكثر وأعظم ، فجئ بحرف الترتيب الرتبى ، بعد أن قضى حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفى المقتضيان حقهما ، وليس هذا بمقتضى أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض ولا مقتضيا أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض" [٩٢] .

ويبين الإمام البقاعى ، سر التعبير بحرف العطف " ثم " دون أى حرف آخر من حروف العطف فيقول : " ولما كانت السموات أعظم من الأرض فى ذاتها بنور أبنيتها واتساعها وزينتها ودوران أفلاكها وارتفاعها ، نبه على ذلك بالتعبير بأداة التراخى ، ولفظ الاستواء ، وحرف الغاية الدال على عظيم العناية " [٩٣] .

ثم جاء التعبير بالفعل الماضى " استوى " وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج . والمعنى : ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها من غير صارف يصرفه عنه . وقيل كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء فأخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء وعلا

---

٩٢ – التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٥

٩٣ – نظم الدرر ٦ / ٥٥٧

علـيه فايـبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع [٩٤].

كمـا أن الاسـتواء " تمثـيل لتعلـيق إرادة الله – تعالـى – بإيجـاد السموات"[٩٥].

ثـم بين – سبحانه – أن هذا الاستواء كان " إلى السماء وهى دخان " أى ثـم عمد وقصد وتوجه توجها كاملا إلى السماء ، حسبما تقتضى الحكمة وهى كتلة غازية مظلمة تشبه الدخان أو السحاب .

وقيل : إن معنى " وهى دخان " أن أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالـدخان ، أى أن الـسماء كونت من ذلك الدخان ، كما تقول : عمدت إلى هاتـه النخلة ، وهى نواة ، فاخترت لها أخصب تربة ، فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض [٩٦].

وبـناء علـى ذلك يكون قوله " وهى دخان " تشبيهاً بليغاً أى وهى مثل الـدخان كمـا أن فى قوله " دخان" استعارة لأن أصل الدخان : ما ارتفع من لهب النار ، وقد استعير هذا المعنى لما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وخص– سبحانه– الاستواء إلى السماء مع كون الخطاب المترتب على ذلك متوجها إليها وإلى الأرض ، كما يفيده قوله : { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً } استغناء بما تقدم من ذكر تقديرها وتقدير ما فيها [٩٧].

وفـى قـوله " ثـم اسـتوى إلى السماء " ايجاز بالحذف والتقدير : ثم استوى إلى خلق السماء .

ثـم عقب هذا الاستواء : { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } .

الفـاء التى سبقت الفعل الماضى " فقال " عاطفة ، وهى تدل على الفور والترتيب ، وجئ بالمسند فعلا وهو " قال" لما فيه من الإيجاز والاختصار .

---

٩٤ – ينظر : الكشاف ٣ / ٤٤٥

٩٥ – التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٥ .

٩٦ – التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٦ .

٩٧ – ينظر : فتح البيان فى مقاصد القرآن ١٢ / ٢٣١ ، ٢٣٢

والضمير فى " لها " يعود إلى السماء .

ومعنى " ائتيا " إفعلا ما آمركما به ، وجيئا به ، وقيل المعنى : ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، ائتى يا أرض مدحورة قرارا ومهادا لأهلك ، وائتى يا سماء مقببة سقفا لهم [٩٨] .

والطاهر بن عاشور صرح بأن الأمر فى قوله (ائتيا) " أمر للتكوين " [٩٩] .

وبعضهم قال بأن المقصود من هذه الصيغة (ائتيا) : تصوير عظمة القدرة الإلهية ونفوذها فى المقدورات دقت أو جلت ، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن يكون هناك آمر ومأمور ، أى : إذا أراد أمراً من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناد وإنما يوجد فورا دون تأخير [١٠٠] .

بينما نجد بعض المفسرين يذهبون إلى أن صيغة الأمر فى هذه الآية للتسخير [١٠١] ، ولعلهم يقصدون أن فعل الأمر " ائتيا " تسخير من المولى - تبارك وتعالى- للسموات والأرض بأن تكون طوع إرادته ، وتحت قدرته ومشيئته يسخرهما كيف يشاء .

ولعل الأرجح أن يكون الأمر (ائتيا) على حقيقته .

وقوله " طوعا أو كرها " هو مثل للزوم تأثير قدرته فيهما وأن امتناعهما لتأثير قدرته محال ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو أبيت ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعتين أو مكرهتين [١٠٢] .

وقوله " طوعا أوكرها " مصدران وقعا حالين من ضمير " ائتيا " أى طائعين أو كارهين ، ووضع المصدر موضع الحال للمبالغة .

---

٩٨ - ينظر : الكشاف ٣ / ٤٤٦ ، وفتح البيان فى مقاصد القرآن ١٢/ ٢٣٢

٩٩ - التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٦ .

١٠٠ - ينظر : الكشاف ٣/ ٤٤٥ ، والتفسير الكبير للرازى ٢٧/ ٩٢ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٧ / ٤٨٦ ، وإرشاد العقل السليم ٥/ ٥٠٤.

١٠١ - ينظر : المحرر الوجيز ٥/ ٧ ، والجامع لأحكام القرآن ١٥/٣٣٤ ، وحاشية الشهاب ٧/ ٣٩١ ، وفتح القدير للشوكانى ٤/ ٥٠٨ .

١٠٢ - ينظر : الكشاف ٣ / ٤٤٦ ، والبحر المحيط ٩/ ٢٨٩ .

وهـذا التعبيـر " طـوعا أو كـرها " فـيه إيجـاز بالحذف والتقدير : " ائتيا طوعا " وإلا أتيتما كرها .

وهـذا القـول أيضا : كناية عن عدم البدّ من قبول الأمر ، وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة الله تعالى فكلمة " طوعا أو كرها " جارية مجرى الأمثال [١٠٣].

كمـا أن هذا التعبير أيضا " طوعا أو كرها " يشتمل على محسن بديعى وهو الطباق ، فقد جمع بين الشئ وضده .

وتتجلى بلاغة النظم القرآنى فى التعبير بقوله "طائعين " ولم يقل مثلا : طائعتـين علـى اللفظ أو طائعتان على المعنى ؛ لأنهما سموات وأرضون ، وإنمـا قـال " طائعـين " ، والعلـة فى ذلك : لما جعلت مخاطبات ومجيبات ووصفت بالطوع والكره ، قيل : طائعين فى موضوع طائعات .

وإنما جاء قوله " طائعين " بصيغة الجمع ؛ لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سموات ، كما قال تعالى إثر { فقضاهن سبع سماوات } فالامتثال صادر عن جمع ، وقيل : يبدو – والله أعلم – أنه إظهار تام للخضوع والعبودية ، وكـأن كـل جـزء مـن أجزائهما قال ذلك القول ، فلفظ (طائعين) يصور الإذعـان المطلق جرساً ولفظاً ودلالة وجمعاً ، وظلالاً ، دلالة الاهتمام البالغ بالمـبادرة إلـى الانقياد[١٠٤] ، وأما كونه بصيغة جمع المذكر ، فلأن السماء والأرض ليس لهما تأنيث حقيقى .

وأما كونه بصيغة جمع العقلاء ، لخاطبهما بما يخاطب به العقلاء .

ويجـوز أن يكـون قـول السماء والأرض فى قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) مستعاراً الدلالة سرعة تكوينهما ، لشبههما بسرعة أمتثال المأمور المطـيع عـن طواعـية فإنـه لا يتـردد ولا يتلكأ ، على طريقة الاستعارة المكنية والتخييل [١٠٥].

---

١٠٣ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٤٧ .
١٠٤ – ينظر : الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن ص ٥٤ .
١٠٥ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٨ .

ويحتمل أن يكون هذا التعبير " ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين " تمثيلا لهيئة تكون السماء والأرض عند تعلق قدرة الله – تعالى – بتكوينهما بهيئة المأمور بعمل تقبله سريعا عن طواعية [١٠٦].

وعلى ذلك يكون التعبير من قبيل الاستعارة التمثيلية ، حيث شبه حالة السماء والأرض التى بينهما وبين خالقهما فى إرادة تكوينهما وإيجادهما بحالة أمر ذى جبروت له نفاذ فى سلطانه وإطاعة من تحت تصرفه من غير تردد .

وهذا من دون مراعاة مشابهة أجزاء الهيئة المركبة المشبهة لأجزاء الهيئة المشبه بها فلا قول ولا مقول وإنما هو تمثيل ، ويكون طوعا أو كرها على هذا من تمام الهيئة المشبه بها وليس له مقابل فى الهيئة المشبهه [١٠٧].

ثم فصل – سبحانه – بديع صنعه فى خلق السموات فقال " فقضاهن سبع سموات فى يومين " أى : ففرغ من خلقهن وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع فى مقدار يومين.

والضمير فى قوله " فقضاهن " إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات ، والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثانى على التمييز [١٠٨].

وتأمل دقة النظم القرآنى ، حيث عبر بقوله " فقضاهن " والقضاء يعني: الإيجاد الابداعى ؛ لأن فيه معنى الإتمام والحكم ، فهو يقتضى الابتكار والإسراع .

وقوله " فى يومين " أى إن خلق السموات فى يومين قبل الأيام الأربعة التى خلقت فيها الأرض وما فيها وهذا التعبير كناية عن قصر المدة التى خلقت فيها السموات .

وإنما كانت مدة خلق السموات السبع أقصر من مدة خلق الأرض مع أن عوالم السموات أعظم وأكثر ؛ لأن الله خلق السموات بكيفية أسرع ، فلعل

---

١٠٦ – ينظر : الكشاف ٣/ ٤٤٥ ، والتحرير والتنوير ٢٤/ ٢٤٨ .
١٠٧ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٧ .
١٠٨ – ينظر : التفسير الكبير ٢٧ / ٩٢ ، والتفسير الوسيط ١٢ / ٣٣٣ .

خلق السموات كان بانفصال بعضها عن بعض ، وتفرقع أحجامها بعضها عن خـروج بعض آخر منه ، وهو الذى قربه حكماء اليونان الأقدمون بما سموه صدور العقول العشرة بعضها عن بعض ، وكانت سرعة انبثاقَ بعضها عن بعض معلولة لأحوال مناسبته لما تركبت به من الجواهر .

وأمـا خلق الأرض فالأشبه أنه بطريقة التولد المبطئ لأنها تكونت من العناصـر الطبيعية فكان تولد بعضها عن بعض أيضاً : " وما يعلم جنود ربك إلاهو "[١٠٩] [١١٠].

وسر خلقه – سبحانه– العالم فى مدة ولم يكن فى لمحة ، وجعلها ستة لا أقـل ولا أكثـر ، أنـه لو خلقه فى لمحة لكان ذلك شبهة لمن يقول : إنه فاعـل بالذات لا بالاختيار ، فاقتضى الحال عددا ، ثم اقتضى الحال أن يكون سـتة لأنها أول عدد يدل على الكمال ؛ لأنها عدد تام كسورها لا تزيد عنها ولا تـنقص ، فآذن ذلك بأن للفاعل نعوت الكمال وأوصاف التمام والتعال ، ولـم يخلقه فيما دون ذلك من العدد لأنه ناقص ، وخلق الأرض فى يومين ؛ لأن الاثنـين عـدد يدل على الفردانية فهو قائد للعبيد إلى التوحيد ، وجعل اليومـين مكـررين باعتبار الذات والمنافع إيذانا بما يقع فيها من المعصية بالـشرك الـذى هـو تثبية وإفك ، ولم يكرر فى السماء لأن آياتها أدل على التوحـيد ، ولـم يحصل من أهلها ما يدل على الوعيد ، وليكون إيجادها فى أقل من مدة الأرض ، مع أنها أكبر جرما وأعجب صنعا وأتقن جسما – أدل على الفعل بالاختيار بعجائب الحكم وغرائب الأسرار الكبار [١١١].

كما أن قوله (فقضاهن سبع سموات فى يومين) فيه إيضاح بعد إبهام ؛ لأن قـوله هذا توضيح وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه ، لا أنه فعل مترتب على تكوينهما .

ولم يذكر مقدار زمن خلق الأرض وخلق ما فيها اكتفاء بذكره فى بيان تقديرهما [١١٢].

---

١٠٩ – من الآية ٣١ من سورة المدثر .
١١٠ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٤٩ .
١١١ – ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٥٨ .
١١٢ – ينظر : روح المعانى ٢٤ / ١٠٣ .

وقـــوله (وأوحى فى كل سماء أمرها) أى : خلق فيها شمسها وقمرها ونجـــومها وأفلاكهـــا ومـــا فيها من الملائكة والبحار والبرد والثلج ، وقيل المعنـــى : أوحـــى فيها ما أراده وما أمر به ، والإيحاء هنا قد يكون بمعنى الأمـــر ، كما فى قوله تعالى { بأن ربك أوحى لها } [١١٣] وقوله { وإذأوحيت إلى الحواريين } [١١٤] أى أمرتهم ، وهو أمر تكوين [١١٥] وها هو الطاهر بن عاشور يبين بأن لفظ الوحى يطلق على معان كثيرة :

فقـــد يطلق لفظ الوحى ويراد منه : الكلام الخفى ، ويطلق الوحى على حصول المعرفة فى نفس من يراد حصولها عنده دون قول ، ثم يتوسع فيه، فـــيطلق علـــى إلهام الله – تعالى – المخلوقات لما تتطلبه مما فيه صلاحها ويطلق على تسخير الله تعالى بعض مخلوقاته لقبول أثر قدرته .

ثـــم بعد ذلك قال : والوحى فى السماء يقع على جميع هذه المعانى من اســـتعمال اللفظ فى حقيقته ومجازاته ، فهو أوحى فى السموات بتقادير نظم جاذبيتها ، وتقادير سير كواكبها ، وأوحى فيها بخلق الملائكة فيها ، وأوحى إلى الملائكة بما يتلقونه من الأمر بما يعملون [١١٦] .

ونجـــد العلامـــة الـــصاوى يـــصرح بـــأن : " الوحـــى كـــناية عـــن التكوين " [١١٧] .

ولعل الأرجح أن يكون الأمر على حقيقته .

وقوله " أمرها " أى : ما أمر به فيها ودبره من خلق الملائكة والنيران وغير ذلك أو شأنها وما يصلحها [١١٨] .

وأضاف الأمر إليها من حيث هو فيها .

وفـــى قوله " أمرها " إيجاز قصر حيث عبر بكلمة الأمر بكل ما فعله فى كـــل ســـماء مـــن خلـــق شمـــسها ونجـــومها وأفلاكها وما فيها من أشياء لا يعلمهـــا إلا هـــو ، كـــل ذلـــك عبـــر عـــنه بكلمة واحدة " أمرها " وهذا

---

١١٣ – سورة الزلزلة، الآية (٥).
١١٤ – من الآية ١١١ من سورة المائدة .
١١٥ – ينظر : فتح البيان فى مقاصد القرآن ١٢ /٢٣٣ .
١١٦ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ /٢٥٠ ، ٢٥١ .
١١٧ – ينظر : حاشية الصاوى ٤/ ١٧ .
١١٨ – ينظر : الكشاف ٣ /٤٤٧ ، والبحر المحيط ٩ /٢٩٢ .

من إيجاز النظم القرآنى ، حيث إن كل لفظة فيه تحمل من المعانى الكثير والكثير .

والإيجاز أعلى طبقات البلاغة مكانة وأسماها منزلة فهو يزيد فى دلالة الكلام من طريق الإيحاء " لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفية يشتغل بها الذهن ويعمل فيها الخيال ، حتى تبرز وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ " [١١٩] .

ثم أخبر – سبحانه – أن الكواكب زين بها السماء الدنيا فقال { وزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ } أى : وزينا السماء الدنيا بكواكب منيرة مضيئة مشرقة على أهل الأرض ، متلألئة عليها كتلألى المصابيح ، وخلقنا المصابيح زينة وحفظا من الشياطين الذين يسترقون السمع ، وحفظناها من الاضطراب فى سيرها ، ومن اصطدام بعضها ببعض فهى تسير فى نظام محكم وعلى منهج ثابت ، وذلك النظام البديع هو من ترتيب الله القادر على صنع كل شئ والذى يعلم كل شئ ، فهو القوى القاهر الذى غلب كل شئ وقهره وهو العليم بمصالح العباد وبحركاتهم وسكناتهم .

وخص السماء الدنيا بالزينة لأنها أول السموات التى تلينا وفى ذلك إيحاء إلى تشريفنا وتأمل الفعل" زينا " الذى يدل على العظمة والجلالة أى زينا بما لنا من العظمة السماء الدنيا أى القربى إليكم لأجلكم بمصابيح من زواهر النجوم ، وهذا لا ينافى أن يكون فى غيرها مما هو أعلى منها "[١٢٠] .

وتأمل هذا الالتفات الجميل الذى جاء فى قوله " وزينا السماء الدنيا بمصابيح " فهو التفات من الغيبة إلى التكلم ، فقد أسند التزيين إلى ذاته – سبحانه – لإبراز مزيد العناية بالأمر .

---

١١٩ – فن الاستعارة دراسة تحليلية فى البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلى – تأليف .د / أحمد السيد الصاوى ٣٣٥ – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٢٠ – ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٥٨ .

كما أن هذا الالتفات تجديد لنشاط السامعين لطول استعمال طريق الغيبة ابتداء من قوله " بالذى خلق الأرض فى يومين " مع إظهار العناية بتخصيص هذا الصنع الذى ينفع الناس دينا ودنيا وهو خلق النجوم الدقيقة والشهب بتخصيه بالذكر من بين عموم " وأوحى فى كل سماء أمرها " فما السماء الدنيا إلا من جملة السموات ، وما النجوم والشهب إلا من جملة أمرها [١٢١].

وفى قوله " بمصابيح " استعارة ؛ لأن المصابيح : جمع مصباح ، وهو وما يوقد بالنار فى الزيت للإضاءة والمراد بالمصابيح : النجوم ، استعير لها المصابيح لما يبدو من نورها ؛ ولأنه يقع الاهتداء بها كقوله تعالى "وبالنجم وهم يهتدون "[١٢٢] وكذلك المصابيح تنير الطريق أمام السائرين .

وفى قوله " وحفظا " إيجاز بالحذف لأن " حفظا " منصوب بإضمار فعل والتقدير : وحفظناها حفظا .

وقوله " ذلك " إشارة إلى جميع ما ذكر ، أو أوجده بقدرته وعزته واحكمه بعلمه .

ولعل اسم الإشارة " ذلك " يشير إلى أن ما سبق أمر باهر، ولذلك نبه على عظمته بقوله صارفا الخطاب إلى صفتى العز والعلم ، إعلاما بانهما أساس العظمة ومدارها .

وفى خاتمه الآية بهذين الوصفين " العزيز العليم " بشارة للأمة التى خوطبت بهما أنه يؤتيها من عزه وعلمه لاسيما بالهبة وما شاكلها من الطبائع وغيرها مالم يؤت أمة من الأمم قبلها [١٢٣].

فضلا عما فى هذين الوصفين من المبالغة وفيه لف ونشر[١٢٤].

وما أحسن هذه الخاتمة ؛ لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

---

١٢١ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٤ / ٢٥١ .
١٢٢ – سورة النحل.
١٢٣ – ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٥٨ .
١٢٤ – ينظر : حاشية الشهاب ٧/ ٣٩٣ .

المبحث الثاني

خطاب الله - سبحانه وتعالى -للنحل

ورد هذا الخطاب في قول الله تعالى في سورة النَّحل { وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ذكر المولى – سبحانه وتعالى –ما يدل على باهر قدرته وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرث ودم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من النحل ، وهى دابة ضعيفة ، لما فيه من العجائب البديعة والأمور الغريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته [١٢٥] .

من الأسرار البلاغية في الآيات :

بدأت هذه الآيات بقوله (وأوحى) والوحى فى معناه العام يعكى معنى الخفاء ، ولذلك جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى : أوحى إليه وأومئ بمعنى وحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره [١٢٦] .

وجاء أيضاً فى المفردات للراغب الأصفهانى : " أصل الوحى الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قيل : أمر وحى وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح والكتابة " [١٢٧] .

وهنا سؤال يفرض نفسه : هل وحى الله للنحل حقيقة أم مجاز ؟

من ينعم النظر فى كلام الإمام الزمخشرى يجده يحمل الإيحاء إلى النحل من باب الحقيقة ، ولذلك يقول : " والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها على وجه هو أعلم به لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها

---

١٢٥ – ينظر : حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٢ / ٢٦٧ .
١٢٦ – أساس البلاغة للزمخشرى (وحى) .
١٢٧ – المفردات ص ٨٠٩ ، ٨١٠ .

فـــى صـــنعتها ولطفها فى تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة علـــى أن الله تعالـــى أودعهـــا علمـــاً بـــذلك وفطنها كما أودع أولى العقول عقولهم"[١٢٨] .

وبعض العلماء يميل إلى أن الوحى إلى غير العاقل من باب التسخير : " يقال : أوحى الله إلى الجماد كذا وسخره له وأجراه عليه كأنما ألقى إليه أمر فامتثله " [١٢٩] .

وقـــد مال إلى هذا الرأى الآلوسى ، حيث فسر الإيحاء إليها بتسخيرها لمـــا أريـــد مـــنها ، ومـــنع أن يكون المراد حقيقة الإيحاء ؛ لأنه إنما يكون للعقلاء ، وليس النحل منها [١٣٠] .

والطاهر بن عاشور ذهب إلى أن الإيحاء إلى النحل من قبيل الاستعارة التمثيلية ، حيث قال : " وأطلق الوحى هنا على التكوين الخفى الذى أودعه الله فى طبيعة النحل ، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض، لا يختلف فيه إحادها ، تشبيهاً للإلهام بكلام خفى بتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمـــل المتعلم بتعليم المعلم أو المؤتمر بإرشاد الآمر الذى تلقاه سراً فاطلاق الوحى استعارة تمثيلية " [١٣١] .

وكلام الطاهر بن عاشور هذا لا تستريح له النفس حيث جعل الوحى من قبيل المجاز فضلاً عن أنه عد ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية ، والاستعارة التمثيلـــية غالـــباً لا تكـــون فى لفظ مفرد كما أجراها الإمام الظاهر فى لفظ الوحى ، وإنما تفهم من السياق أو من مجموع الكلام .

ولعـــل الرأى الراجح – والله أعلم – أن يكون الوحى إلى النحل من باب الحقيقة على وجه هو أعلم بها ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه كما صرح بـــذلك الإمـــام الزمخشرى ، حتى وإن كنا نجهل هذه الحقيقة بل إن الجهل ، بهذه الحقيقة أدعى لعدم صرف الكلام إلى المجاز .

---

١٢٨ – الكشاف ٢ / ٤١٧ .
١٢٩ – معجم ألفاظ القرآن الكريم ٢ / ٦٣٤ .
١٣٠ – ينظر : روح المعانى ١٤ / ١٨١ .
١٣١ – التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٥ .

والواو التى سبقت الفعل (أوحى) قيل : إنها استئنافية [١٣٢]، والأرجح أن تكون عاطفة على ما قبلها ، لتتساوق الدلائل على عجائب صنعته تعالى وبدائع قدرته[١٣٣]، فهو " عطف عبرة على عبرة ومنّة على منّة " [١٣٤].

وتأمل دقة النظم القرآنى حيث افتتحت الجملة بالفعل (أوحى) دون أن تفتتح باسم الجلالة مثل جملة (والله أنزل)[١٣٥] لما فى (أوحى) من الإيحاء إلى إلهام تلك الحشرة الضعيفة تدبيراً عجيباً ، وعملا متقناً ، وهندسة فى الجبلة ، فكان ذلك الإلهام فى ذاته دليلاً على عظيم حكمة الله تعالى فضلاً على ما بعده من دلالة على قدرة الله تعالى ومِنَّة منه [١٣٦].

وجاء المسند فعلاً (أوحى) لغرض بلاغى وهو إفادة تقييد الحدث الدال عليه الفعل بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار ، والفعل هنا فعل ماضى ، أفاد حصول الإيحاء فى الزمان الماضى ، فمجىء المسند فعلاً أفاد حصول الحدث وهو الإيحاء فى زمن معين بإيجاز وهذا محط النكتة البلاغية ، فلو أتى بالمسند اسماً لدل على الحدث فقط ، أما الزمن فيحتاج للدلالة عليه إلى لفظ آخر يذكر مع الاسم ، وبهذا يتبين لنا أن الفعل يفيد المراد مع الإيجاز فضلاً عن أن الفعل يفيد تجدد الحدث فى المسند ، بمعنى حصوله بعد العدم بلا مراعاة الاستمرار فيه ؛ لأن الزمن جزء مفهوم الفعل ، والزمن متجدد متغير فلزم ذلك فى الحدث المقارن له ، ومن هنا كان الفعل دالاً على التجدد بالوضع فإذا أريد إفادة التجدد فى المسند جىء به فعلاً ، ولو جىء به اسماً لدل على الثبوت فقط ،

ثم أتى بالمسند إليه معرفاً بالعلمية فى قوله (وأوحى ربك) للقصد إلى إحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسمه المختص به ، وكأن هذا الإيحاء لا يصدر ولا يكون إلا من رب العالمين .

---

١٣٢ – ينظر : الجدول فى إعراب القرآن ٧ / ٣٤٩ .
١٣٣ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٥ / ٣٣١ .
١٣٤ – التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٤ .
١٣٥ – من الآية ٦٥ من سورة النحل .
١٣٦ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

أضف إلى ذلك أن مجيء المسند إليه هنا معرفاً بالعلمية ، ليناسب المقام الذى تتحدث عنه هذه الآيات ، فالمولى – سبحانه وتعالى –بعد بيان وعد المؤمنين بالجنان ووعيد الكافرين بالنيران ، عاد تعالى إلى إثبات قدرته مع أن كل شيء فى الوجود ينطق بقدرته وعظمته – ووجوده ووحدانيته بدلائل حسية مشاهدة لكل راءٍ أمامه صباح مساء من إنبات الزرع والشجر والمطر وإخراج اللبن من الأنعام ، واتخاذ أصناف المآكل من الأعناب والنخيل ، وإخراج العسل من بطون النحل الذى فيه شفاء للناس ، فالتعبير بلفظ الجلالة (ربك) أعون على ترسيخ ذلك فى ذهن السامع .

فاختيار النظم القرآنى للفظ (ربك) دون لفظ الجلالة (الله) لأن الرب يعنى المالك لكل شيء والمستحق والصاحب له والقائم على كل شيء [١٣٧] .

فضلاً عن أن لفظ (ر ب) يوحى بمعنى العناية والرعاية والتربية والإحسان المناسب لمقام ذكر النعم وإضافته إلى كاف الخطاب تجعل المخاطب فى قلب الحوار ، وتخصه بالعبرة وتلفته بشدة إلى التدبر .

والقرآن الكريم يضع كلاً فى موضعه ومكانه الملائم ووضع لفظ (ربك) فى هذا الموضع من سورة النحل يناسب الغرض المراد وهو استحضار عظمة الله تعالى وإثبات قدرته ووجوده لمن هو أعمى البصر والبصيرة ، وإلا فالكون كله ملىء بدلائل حسية تكاد تنطق بوحدانية الله تعالى بأن هذا الكون له إله واحد لا شريك له .

وقوله : (إلى النحل) أى أوحى ربك إلى النحل بالإلهام قيل : إن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فبعضها بالتسخير المجرد كالجمادات، وبعضها بالإلهام والتسخير كالنحل والعنكبوت وبعضها بالتسخير والإلهام والعقل المتفق على نظام واحد كالملائكة وبعضها بكل ذلك والفكر والتمييز والأعمال المختلفة المبنية على الفكرى كالإنسان [١٣٨] .

---

١٣٧ – ينظر : لسان العرب لابن منظور ٥ / ٩٥ (ربب) .
١٣٨ – ينظر : نظم الدرر ٤ / ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

والنحل : اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى وسمى بذلك ؛ لأن الله – تعالى – نحله أى منحه العسل الذى يخرج منه [١٣٩].

ولمـــا كان فى الإيحاء معنى القول أتى بـــ (أن) المفسرة [١٤٠]، فقال : { أَنِ اتَّخِـــذِي مِـــنَ الجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعْرِشُونَ } أى ألهمها الله وأرشـــدها أن تـــتخذ من الجبال بيوتاً تأوى إليها ومن الشجر ومن عرائش الناس التى يصنعونها لها فى البيوت كالكروم ، فتبنى بيوتاً محكمة الإتقان ، سداسية الأشكال من أضلاع متساوية ، لا يزيد بعضها على بعض ولا يوجد فـــيها خلل ، تخزن فى بعضها العسل وفى بعضها الأخر الشمع لتربية صغار النحل .

وجعلهـــا سداســـية لمنع الفرج الخالية الضائعة فيما بينها ، وإذا نفرت نحلة من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها ردوها إلـــى وكرها على ألحان الموسيقى والطبول وكل ذلك دليل على مزيد الذكاء والكياسة [١٤١].

وقـــوله { أَنِ اتَّخِـــذِي مِـــنَ الجِـــبَالِ بُـــيُوتاً ومِـــنَ الـــشَّجَرِ ومِمَّـــا يَعْرِشُـــونَ } يشتمل على صورة من صور الإطناب وهى صورة الأيضاح بعد الإبهـــام ؛ لأن قـــوله الـــسابق { وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ } إجمال وإبهام فيه تـــشويق وترغيب للنفس لمعرفة ما هو الإيحاء الذى أوحاه الله إلى النحل ، ثـــم يأتـــى الأيضاح والتفصيل وقد حصل التلهف والشوق من السامع { أَنِ اتَّخِـــذِي مِنَ الجِبَالِ ... } وبذلك يتمكن المعنى فى النفس فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم .

وقـــد فصلت جملة { أَنِ اتَّخِذِي ... } عن الجملة التى قبلها لما بينهما مـــن شبه كمال الاتصال ، حيث إن جملة (ان اتخذى) بمثابة جواب لسؤال اقتضته جملة { وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ } فكأن سائلاً سأل وبأى شىء أوحى

---

١٣٩ – ينظر : تفســير القرطــبى ٩ / ١٣٣ – وفتح البيان فى مقاصــد القــرآن ٧ / ٢٧١، والتفسير الكبير ٢٠ / ٥٧ .

١٤٠ – ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٧ .

١٤١ – ينظر : التفسير المنير ١٤ / ١٧١ .

ربك ، فأجيب بقوله { أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ ... } وهكذا نجد أن للتعبير بالفصل والوصل في القرآن الكريم منزلة بلاغية سامية ، حسب استدعاء الحال واقتضاء المقام ، ولذلك نجد الإمام عبد القاهر يشيد بباب الفصل والوصل فيقول : إن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص وإلا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فناً من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال : معرفة الفصل من الوصل ، وذلك لغموضه ودقة مسلكه وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة [١٤٢] .

وتأمل دقة النظم القرآنى فى استعماله حرف الجر (من) دون (فى) فى قوله (من الجبال) لأن (من) هنا تبعيضية فالمولى – سبحانه وتعالى –أراد أن لا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا فى كل مكان منها [١٤٣] .

وتأمل الأماكن التى أمرها المولى – سبحانه وتعالى –أن تبنى بيوتها فيها : الجبال أو الشجر أو العُرش ، دون بيوت الحشرات الأخرى ، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة [١٤٤] .

فضلاً عن دقة التعبير بفعل الأمر (اتخذى) دون (ابنى) مثلاً ؛ لأن فعل الأمر (اتخذى) يشمل بناء البيوت لها وتتخذها هى مسكناً وفى هذه الحالة لا تكون هى التى بنتها وإنما بنيت لها ثم أقامت فيها ، وبذلك يكون فعل الأمر (اتخذى) يشمل البيوت التى أقيمت لها والبيوت التى أقامتها بنفسها أما لو قال أن (ابنى) لكان الأمر مقصوراً على البيوت التى تبنيها هى .

---

١٤٢ – دلائل الإعجاز ص ٢٢٢ .
١٤٣ – ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٧ ، والبحر المحيط ٦ / ٥٥٩ .
١٤٤ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٦ .

ويؤيد ما ذهبنا إليه من اختيار الفعل (اتخذى) دون (ابنى) قول الإمام الرازى :

" اعلم أن النحل نوعان :

النوع الأول : ما يسكن فى الجبال والغياض ولا يتعهدها أحد من الناس .

والنوع الثانى : التى تسكن بيوت الناس وتكون فى تعهدات الناس ، فالأول هو المراد بقوله { أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ } ،والثانى هو المراد بقوله { وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } وهو خلايا النحل[١٤٥] فالفعل اتخذى يجمع بين النوعين .

والإمام الرازى قد تعرض لفعل الأمر (اتخذى) وذكر فيه رأيين :

الرأى الأول : قال : قد يراد به حقيقته ؛ لأن بعض الناس يقول لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول ولا يبعد أن يتوجه عليها من الله تعالى أمر ونهى .

والرأى الثانى : قال : ليس المراد به حقيقته بل المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال [١٤٦].

ولعل من الأرجح أن يكون فعل الأمر (اتخذى) مراداً به حقيقته لأن الله قادر على كل شىء .

والنظم القرآنى قد بدأ بالبيوت { أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ } لأنها من عجب الدهر فى حسن الصنعة وبراعة الشكل وبراعة الإحكام وتمام التناسب [١٤٧].

وفى قوله (بيوتاً) استعارة أشار إليها الشيخ زادة بقوله " أن البيت هنا مستعار لمحل النحل ، تشبيهاً له بما يبنيه الإنسان ويبيت فيه من الأبنية فى اشتماله على حسن الصنعة وصحة القسمة " [١٤٨].

---

١٤٥ – التفسير الكبير ٢٠ / ٥٧ .
١٤٦ – التفسير الكبير ٢٠ / ٥٧ .
١٤٧ – ينظر : نظم الدرر ٤ / ٢٨٦ .
١٤٨ – حاشية الشيخ زادة ٥ / ٢٩٦ .

وبذلك يكون قد استعير لفظ البيت لمحل النحل ، استعارة تصريحية أصلية ، حيث شبه محل النحل بالبيت بجامع حسن الصنعة وصحة القسمة والإحكام فى كل ، ثم حذف المشبه واستعمل لفظ المشبه به فى المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وهذا التصوير الاستعارى يوحى لنا على ما فى محل النحل من الصنائع العجيبة التى لا يقدر عليها المهندسون إلا بالآلات والأنظار الدقيقة .

ولما كان أهم شىء للحيوان بعد الراحة من همّ المقيل الأكل ، ثنى به فقال { ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } أى : ثم امتصى من رحيق جميع الثمار ما تشاءين حلوة كانت أو مرة أو بين ذلك ، وإن كان أبو حيان يصرح بأن (من) فى قوله { مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } للتبعيض فتأكل من الأشجار الطيبة والأوراق العطرة أشياء يولد الله منها فى أجوافها عسلاً [١٤٩] .

وقد بدأت هذه الجملة بحرف العطف (ثم) التى تفيد المهلة والتراخى ، والسرفى استعمال هذا الحرف دون حرف العطف (الفاء) مثلاً ، أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت لسكناها لتطلب بعد ذلك الرزق فى مظانه [١٥٠] .

والأمر فى قوله { ثم كلى } قيل : أنه للتسخير ، أى سخرها أن تأكل من كل الثمرات وهذا هو ما صرح به صاحب التفسير المنير فقال : " وهذا إذن أمر قدرى تسخيرى أن تأكل من كل الثمرات " [١٥١] .

والآلوسى يقول : " إن الأمر للتخلية والإباحة " [١٥٢] .

ولعل الأرجح أن يكون الأمر حقيقياً للوجوب والإلزام .

---

١٤٩ – ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦٠ .
١٥٠ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٥ / ٣٣١ .
١٥١ – التفسير المنير ١٤ / ١٧٢ .
١٥٢ – روح المعانى ١٤ / ١٨٣ .

وأشار إلى كثرة الرزق بقوله تعالى { مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } قالوا : من أجزاء لطيفة تقع على أوراق الأشجار من الظل وقال بعضهم : من نفس الأزهار والأوراق [١٥٣].

كما أن فى لفظ (الثمرات) مجازاً مرسلاً ، علاقته اعتبار ما سيكون ؛ لأن الثمرات : جمع ثمرة ، وأصل الثمرة ما تخرجه الشجرة من نحلة مثل التمر والعنب والنحل يمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات ، فأطلق (الثمرات) فى الآية على الأزهار على سبيل المجاز المرسل بعلاقة اعتبار ما سيكون .

كما أن قوله { أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً } وقوله { ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ } فيه طباق وهو الجمع بين معنيين متقابلين فى الجملة ؛ لأنه أورد فى الأول (من) التبعيضية وفى الثانى (كل) وفيه إرشاد لها إلى وجوه العمل وترتيبه ، حيث سخرها الله تعالى ؛ لأن تسوى البيت ثم تأخذ من كل ثمرة جزءاً للجرس للعسل [١٥٤].

ولما أذن لها فى ذلك كله وكان من المعلوم عادة أن تعاطيه لا يكون إلا بمشقة عظيمة فى معاناة السير إليه ، نبه على خرقة للعادة فى تيسيره لها فقال تعالى { فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً } أى : إذا أكلت من الثمار فاسلكى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها فى عمل العسل ، أو فى طلب تلك الثمرات والعودة بسلام إلى الخلايا [١٥٥].

وجاء العطف هنا بالفاء فى قوله فاسلكى ؛ لأن المراد : إذا أكلت فاسلكى سبل ربك أى طرق ربك إلى بيوتك راجعة بسرعة ولا تتأخرى والحكمة فى ذلك حتى إذا شبعت النحل قصدت المبادرة بسرعة إلى بيوتها ، لتقذف من بطونها العسل الذى يفضل عن قوتها ، " وبيان ذلك أن للأزهار وللثمار غدداً دقيقة تفرز سائلاً سكرياً تمتصه النحل وتملأ به ما كالحواصل فى بطونها وهو يزداد حلاوة فى بطون النحل باختلاطه بمواد كيميائية مودعة فى بطون النحل فإذا راعت من مرعاها إلى بيوتها أخرجت من

---

١٥٣ – ينظر : نظم الدرر ٤ / ٢٨٦ .
١٥٤ – ينظر : حاشية الشيخ زادة ٥ / ٢٩٧ .
١٥٥ – ينظر : الكشاف للزمخشرى ٢ / ٤١٨ ، والتفسير المنير ١٤ / ١٧٢ .

أفـواهها مـا حصل فى بطونها بعد أن أخذ منه جسمها ما يحتاجه لقوته ، وذلك يشبه اجترار الحيوان المجتر فذلك هو العسل" [١٥٦].

والمـراد بالـسبل : مـسالكها فـى العـود ، وأضـاف الـسبل إلـى رب الـنحل مـن حـيث أنـه تعالى هو خالقها ومالكها ،والناظر فى تهيئة مصالحها ومعاشها [١٥٧].

وفـى لفـظ (السبل) استعارة تصريحية أصلية ، حيث استعار السبل للطرق التى ألهمها ربها فى عمل العسل واستعمل لفظ المشبه فى المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، صرح بذلك الإمام الآلوسى فقال : " الـسبل مجاز عن طرق العمل وأنواعها أى : فاسلكى الطرق التى ألهمك ربك فى عمل العسل " [١٥٨].

وآثـر الـنظم القرآنـى هنا لفظ (الرب) دون أى اسم من أسماء الله الحسنى ؛ لأن ذلك هو المناسب للسياق والمقام ؛ لأن هذه الآيات تتحدث عن قـدرة الله ووجـوده ووحدانيته ، فكان من المناسب التعبير بلفظ (الرب) ليذكر الناس بأن الله هو الذى رباهم وأنعم عليهم بنعم لا تقدر ولا تحصى ، وفـوق هـذا هو مالكهم ومالك أمرهم ، لذلك يقول الرافعى مشيداً بأسلوب القـرآن فـى اختيار كلماته ، ووضعها موضعها المناسب لها " نزلت كلماته مـنازلها علـى ما استقرت عليه طبيعة البلاغة ، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو والذى تمكنت به مفردات النظام الشمسى وارتبطت به سائر أجزاء المخلـوقات صفة متقابلة بحيث لو نزعت كلمة منه أو أزيلت عن وجهها ثم أديـر لـسان العرب كله على أحسن منها فى تأليفها وموقعها وسدادها ، لم يتهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة واحدة " [١٥٩].

كمـا أنـه " أشار باسم الرب إلى أنه لولا عظيم إحسانه فى تربيتها لما اهتدت إلى ذلك " [١٦٠].

وقوله " ذللا " فيه قولان :

---

١٥٦ – التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٨ .
١٥٧ – ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦٠ .
١٥٨ – روح المعانى ١٤ / ١٨٣ .
١٥٩ – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢٥٤ .
١٦٠ – نظم الدرر ٤ / ٢٨٦ .

الأول : أنـــه حـــال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله { هُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً }[١٦١] .

الثانـــى : أنـــه حال من الضمير فى " فاسلكى " أى وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة [١٦٢] .

وقـــوله " فاســـلكى " أمر من سلكت الشئ فى الشئ فانسلك أى أدخلته فيه فدخل .

والشيخ زادة يذكر فى هذا الأمر رأيين فيقول : والظاهر أن توجه الأمر والتكلـــيف إلـــى البهائم كما فى هذه الآية ، وفى قوله :{ يا أيها النمل ... " على طريق التمثيل . شبه خلق الله تعالى إياهاً على غرائز وطبائع توجب ما أســـند إلـــيها من الأحوال بأمرها وتكليفها فعبر عن المشبه بلفظ المشبه به وإن كـــان لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول تصلح بها لأن يتوجه إليها من الله تعالى أمر ونهى [١٦٣] .

ولعـــل الأرجـــح أن يكون هذا الأمر على حقيقته كما أشار بذلك الشيخ زادة فى أحد رأييه .

وإضـــافة السبل إلى " ربك " للإشارة إلى أن النحل مسخرة لسلوك تلك الـــسبل لا يعـــدلها عـــنها شئ ، لأنها لو لم تسلكها لاختل نظام إفراز العسل منها[١٦٤]

ثـــم ذكـــر تعالـــى على جهة تعديد النعمة والتنبيه على المنة ثمرة هذا الاتخاذ والأكل والسلوك فقال : { يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ } .

أى : يخرج من بطون النحل – بعد أكلها من كل الثمرات وبعد اتخاذها بيوتها – شراب هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل على حسب اختلاف مراعيها ومآكلها وسنها وغير ذلك بما اقتضته حكمته – سبحانه وتعالى –.

---

١٦١ – من الآية ١٥ من سورة الملك .
١٦٢ – ينظر : التفسير الكبير ٢٠ / ٥٨ .
١٦٣ –ينظر : حاشية الشيخ زادة ٥ / ٢٩٨
١٦٤ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٨

وهذا كلام مستأنف عدل به من خطاب النحلة إلى خطاب الناس ، تعديداً للنعم ، وتعجب لكل سامع ، وتنبيهاً على مواطن العظات والعبر الدالة على وحدانية الله – تعالى – وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه [١٦٥] .

وفصلت جملة " يخرج من بطونها شراب " عن الجملة التى قبلها وهى قوله " فاسلكى سبل ربك " بكمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث إن الجملة الأولى وهى قوله " فاسلكى " إنشائية لفظاً ومعنى ، وجملة " يخرج من بطونها " خبرية لفظاً ومعنى .

وقد يكون الفصل الشبه كمال الاتصال ، حيث إن الجملة الثانية بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، فكأن سائلاً سأل وقال : ماذا يحدث بعد أن تسلك النحل الطرق التى أمرها بها المولى – سبحانه وتعالى – وماذا يعقب ذلك ؟ فكان الجواب " يخرج من بطونها شراب ...".

ومن الجدير بالذكر : أن هذه الجملة قد بدأت بصورة من صور الالتفات وهى التفات من الخطاب إلى الغيبة ولو جاء الكلام على النسق الأول لقيل من بطونك ، وإنما عدل النظم القرآنى من الخطاب إلى الغيبة لنكتة بلاغية وهى أنه ذكر للبشر العسل وأوصافه وألوانه المختلفة ، وأخبرهم أن فيه فوائد شتى لهم ، ليلفت انتباههم إليه ، ولو قال : من بطونك لذهبت تلك الفائدة التى حققها خطاب الغيبة .

وقيل : إن السر فى هذا الالتفات هو أن " المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوى والسفلى ، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره ، خاطب الإنسان وقال : إن إلهامنا هذا النحل لهذه العجائب لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه " [١٦٦] .

وتأمل التعبير بالفعل المضارع " يخرج " حيث أتى المسند فعلاً مضارعاً ، وهذا يفيد تجدد خروج العسل واستمراره من بطونها آن إثر آن فهو متجدد تجدداً مستمراً ، ولذلك عبر عنه بالفعل المضارع لتحقيق هذه الإفادة وهى التجدد والحدوث أو التجدد الاستمرارى .

---

١٦٥ – ينظر : التفسير الوسيط ٨ / ١٨٩

١٦٦ – التفسير الكبير ٢٠ / ٥٨ .

وذكر تعالى المقر الذى يخرج منه الشراب وهو قوله (من بطونها) وخص البطون " لأن استحالة الاطعمة لاتكون إلا فى البطن " [١٦٧] .

وقيل معنى (من بطونها) أى من أفواهها ، سمى الفم بطناً ؛ لأنه فى حكم البطن ولأنه مما يبطن ولا يظهر .

وقيل: إنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ولكن لا يتم صلاحه إلا بحمى أنفاسها ، وقد صنع أرسطاطاليس بيتاً من زجاج ، لينظر إلى كيفية ما تصنع فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين [١٦٨] .

وقوله (شراب) يعنى العسل ، وسمى بذلك ؛ لأنه مما يشرب ، حتى قيل: أنه لا يقال : أكلت عسلاً وإنما يقال : شربت عسلاً ، وكأنه – سبحانه – إنما لم يعبر بالإخراج ، مسنداً إليه تعالى اكتفاء بإسناد الإيحاء بالمبادئ إليه جل شأنه وفيه إيذان بعظيم قدرته – عز وجل – بحيث إن ما يشعر بإرادة الشئ كاف فى حصوله [١٦٩] .

وعبر عن العسل باسم الشراب دون العسل ، لما يومئ اليه اسم الجنس من معنى الانتفاع به وهو محل المنة ، وليرتب عليه جملة (فيه شفاء للناس) وسمى شراباً ، لأنه مائع يشرب شرباً ولا يمضغ [١٧٠] .

ومن أوصاف العسل أيضا بعد وصفه بكونه شرابا " مختلف ألوانه " .

والمعنى : أن منه أحمر وأبيض وأصفر ووصفه بـ" مختلف ألوانه " لأن له مدخلا فى العبرة ، كقوله تعالى {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ }[١٧١] فذلك من الآيات على عظيم القدرة ودقيق الحكمة[١٧٢] .

واختلاف الألوان فى العسل بحسب اختلاف النحل والمراعى ، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى . [١٧٣]

---

١٦٧ – تفسير القرطبى ٩ / ١٣٥ .
١٦٨ – ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦١ .
١٦٩ – ينظر : روح المعانى ١٤ / ١٨٤
١٧٠ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٩
١٧١ – من الآية ٤ من سورة الرعد .
١٧٢ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٩
١٧٣ – ينظر : المحرر الوجيز ٣ / ٤٠٦

الوصف الثالث من أوصاف العسل (فيه شفاء للناس) لأنه من جملة الاشفية والادوية المشهورة النافعة ، وقلَّ معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض ، كما أن كل دواء كذلك [١٧٤] .

وتنكير لفظ (شفاء) إما لتعظيم الشفاء الذى فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء وكلاهما محتمل . [١٧٥]

والظاهر عود الضمير (فيه) إلى الشراب وهو العسل [١٧٦] ولكن نقل عن بعضهم أن ضمير (فيه) للقرآن ، والمراد أن فى القرآن شفاء لأمراض الجهل والشرك وهدى ورحمة ، وقال القاضى أبو بكر بن العربى : أرى هذا القول لا يصح نقله عن هؤلاء ، ولو صح نقلاً لم يصح عقلاً فإن سياق الكلام كله للعسل وليس للقرآن فيه ذكر [١٧٧] .

وليس المراد بالناس هنا العموم ؛ لأن كثيراً من الأمراض لايدخل فى دوائها العسل وإنما المعنى للناس الذى ينجع العسل فى أمراضهم [١٧٨] .

وفى قوله (فيه شفاء للناس) استعارة تبعية فى الحرف ، أوما إليها ابن عاشور بقوله:" وجعل الشفاء مظروفاً فى العسل على وجه الظرفية المجازية وهى الملابسة للدلالة على تمكن ملابسة الشفاء إياه وإيماء إلى أنه لا يقتضى أن يطرد الشفاء به فى كل حالة من أحوال الأمزجة ، أو قد تعرض للأمزجة عوارض تصير غير ملائم لها شرب العسل . فالظرفية تصلح للدلالة على تخلف المظروف عن بعض أجزاء الظرف ؛ لأن الظرف يكون أوسع من المظروف غالباً ، شبه تخلف المقارنة فى بعض الأحوال بقلة كمية المظروف عن سعة الظرف فى بعض أحوال الظروف ومظروفاتها" [١٧٩] .

---

١٧٤ – ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٨

١٧٥ – ينظر : الكشاف ٢ / ٤١٨ .

١٧٦ – ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦١

١٧٧ – ينظر : روح المعانى ١٤ / ١٨٦

١٧٨ – ينظر : البحر المحيط ٦ / ٥٦١

١٧٩ – التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٩

وهذا التعبير القرآنى " فيه شفاء للناس " يشتمل على إيجاز بالحذف ؛ لأن العسل يكون شفاءً لأمراض الناس ، فحذف كلمة " الأمراض " .

وعموم التعريف فى قوله تعالى (للناس) لا يقتضى العموم الشمولى لكل فرد بل لفظ (الناس) عمومه بدلى ، والشفاء ثابت للعسل فى أفراد الناس ، بحسب اختلاف حاجات الأمزجة إلى الاستشفاء [١٨٠] .

ولما كان أمر النحل عجيباً فى بنائها تلك البيوت المسدسة وفى أكلها من أنواع الأزهار والأوراق الحامض والمر والضار وفى طواعيتها لأميرها ، ولمن يملكها فى النقلة معه ، وكان النظر فى ذلك يحتاج إلى تأمل وزيادة تدبر ختم بقوله تعالى { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} إن فى كل ما ذكر عن النحل لدلالة واضحة على وجود الله وقدرته لقوم يتفكرون فى عجيب صنع الله وخلقه ورعايته الحكمة والمصلحة فى ترتيب العالم [١٨١] .

وجاء الكلام فى قوله { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} مؤكداً بأكثر من مؤكد ؛ لأن هذه الآيات تتحدث عن قدرة الله – سبحانه وتعالى – وعجيب صنعه فى خلقه وفى ملكوته ، فكان السياق يستدعى هذا التأكيد ، ليزيل أدنى شك عند الذين لا يؤمنون بأن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له .

وتأمل إيجاز القصر فى قوله تعالى { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أى أن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أمر النحل ، من إلهامها اتخاذ البيوت العجيبة ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ومن سلوكها الطرق التى جعلها الله مذللة فى ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ومن خروج العسل من بطونها إن فى ذلك وغيره لآيه باهرة وعبرة ظاهرة ودلالة جلية على وحدانية الله – تعالى – وقدرته وحكمته لقوم يحسنون التفكير فيما أخبرهم الله – تعالى – عنه أو يوقنون بأن لهذا الكون رباً واحداً لا إله إلا هو (تبارك الله رب العالمين) .

---

١٨٠ – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢٠٩ ، ٢١٠

١٨١ – ينظر : التفسير المنير ١٤ / ١٧٣ ، ١٧٤

وتأمل بلاغة النظم القرآنى ، حَيث اختار وصف التفكر هنا ؛ لأن الاعتبار بتفصيل ما أجملته الآية فى نظام النحل محتاج إلى إعمال فكر دقيق ونظر عميق [١٨٢] .

ومن بلاغة النظم فى هذه الجملة إفراده لفظ " الآية " وهذا يدل على أن ما يحدث من النحل من اختصاصه بتلك العلوم الدقيقة واللطائف الخفية بالبيوت المسدسة والاهتداء إلى تلك الأجزاء اللطيفة من أطراف الأشجار والأوراق وغير ذلك من الغرائب لآية واحدة من آياته التى بثها من ملكوته يراها ويقربها كل موحد بالله ، فهو على جمعه كأنه شىء واحد ، فوُحِّدَتْ لفظة (آية) لتوحيد المدلول عليها .

وتأمل دقة التعبير القرآنى حيث قال " لقوم يتفكرون "إن الذى يحدث من النحل لآية عظيمة لقوم يتفكرون بعقولهم فى هذا الصنع العجيب أما من أغفل عقله ، وعطل هذه الحاسة ، وهى حاسة العقل ، فإنه سيمر على ذلك مر الكرام ولا يتأثر بمثل هذه الأشياء وهؤلاء هم الذين طبع الله على قلوبهم وعقولهم ، فهم لايسمعون ولا ينظرون .

وفصلت جملة " إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ..." عن التى قبلها لأنها بمثابة جواب عن الجملة التى قبلها ، وكأن سائلاً سأل وقال : ما الذى يترتب على ذلك؟ وما العلة من ذكر هذه الأعاجيب ؟ فجاء الجواب : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } .

وإيثار المضارع (يتفكرون) على الماضى ، ليكون التفكير فى كل الأوقات متجدداً ومستمراً حتى يؤدى الغرض المنشود له ، ولدفع توهم أن هذه الآيات العجيبة التى ذكرها المولى – سبحانه وتعالى – من أمر النحل ، خاصة بالماضى أو بقوم بعينهم .

---

[١٨٢] – ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٢١٠

المبحث الثالث

خطاب الله - سبحانه وتعالى -للجبال والطير

ورد هـذا الخطـاب فى قول الله – تعالى – فى سورة سبأ :{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِـنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَأَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} الآيتان ١١ ، ١٢ .

مناسبة الآيات لما قبلها :

مناسبة قصة سيدنا داود – عليه السلام– لما قبلها هى أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم ، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل فى العادة ، ممـا لا يمكـنهم إنكاره ، إذ طفحت ببعضه أخبارهم وشعراؤهم ، من تأويب الجبال والطير مع داود عليه السلام وإلانة الحديد له [١٨٣] .

المعنى العام للآيات :

يخبـر المولـى سـبحانه وتعالى فى هذه الآيات عن الذى أنعم به على رسـوله داود – عليه السلام – حيث آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النـبوة والملك العظيم فقال : للجبال والطير ، رددا معه التسبيح إذا سبح ، وجعل الحديد فى يده ليناً يصنع به ما يشاء من غير حاجة إلى نار ولا مطرة بل كان يفتله فى يده مثل الخيوط ، ليعمل به الدروع الكاملات الواسعات التى تقـى مـن ويـلات الحروب ، ولاشك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق معجزة لنبى الله داود ، لا تنطبق على غيره .

من الأسرار البلاغية فى الآيات :

بـدأت هـذه الآيـات بأسـلوب إنـشائى غيـر طلبـى وهـو القسم " ولقـد " لأن الـلام ، لام القـسم ، وقـيل إن الـلام جـواب للقـسم المحـذوف [١٨٤] وتقديـر القـسم :وعزتنا وما ثبت لنا من الإحاطة بصفات الكمـال بالاتصاف بالحمد ، لقد أعطينا داود عطاء عظيماً ، دالاً على نهاية المكنة بما لنا من العظمة [١٨٥] .

---

١٨٣ – ينظر : البحر المحيط ٨ / ٥٢٤

١٨٤ – ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٨ / ٧٣ .

١٨٥ – ينظر : نظم الدرر ٦ / ١٥٧ .

والمقصود من هذا القسم ، تأكيد الخبر للسامعين ؛ لأن هؤلاء كانوا ينكرون البعث فأخبرهم المولى – سبحانه وتعالى – بوقوع ما هو مستحيل في العادة ، مما لا يمكنهم إنكاره ، وجاء الكلام بالقسم ، (وقد) التحقيقية ؛ لأن التحقيق فيه معنى التأكيد ، وهذا هو ما أشار اليه الزركشى فى كتابه البرهان عندما قال : (قد) فإنها حرف تحقيق وهو معنى التأكيد "[١٨٦] .

فجاء الكلام مؤكداً بهذه المؤكدات ؛ لأنه يواجه مخاطباً منكراً لوقوع البعث فكان من المناسب للسياق للتأكيد .

وهذا القسم قسم من المولى – عز وجل – بأنه قد أعطى سيدنا داود فضلا عظيماً ونعماً جليلة ، وهذا القسم يوحى بمدى فضل الله ومنته على سيدنا داود ، أضف إلى ذلك التوبيخ والتنديم لهؤلاء الذين ينكرون البعث ، وكأن المولى سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء ها نحن قد آتينا داود عليه السلام أشياء هى فى عرفكم مستحيلة ، أليس ذلك يكون دليلاً على وجود البعث ، فضلاً عن أنه تهيئة وتنبيه لنفس المخاطب ، لعله يتنبه إلى خطئه ويرجع إلى رشده .

كما أن هذا القسم دليل واضح على أن القرآن نزل بلغتهم ؛ لأن من أساليب كلامهم القسم .

وقوله : {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا} : أى أتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء ، واختلف فى هذا الفضل على أقوال :

فقيل : النبوة ، وقيل : الزبور ، وقيل : القوة كما فى قوله { وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ }[١٨٧] وقيل : تسخير الجبال فى قوله { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ } ، وقيل التوبة ، وقيل الحكم بالعدل كما فى قوله تعالى {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ }[١٨٨] وقيل : هو إلانة الحديد ، وقيل : حسن الصوت ، والأولى أن

---

١٨٦ – البرهان للزركشى ٢ / ٤١٧ .
١٨٧ – من الآية ١٧ من سورة ص .
١٨٨ – من الآية ٢٦ من سورة ص .

يقال : هذا الفضل هو ما ذكره الله بعده من قوله (يا جبال) إلى آخر الآية[189] .

وتأمل التعبير بالفعل الماضى " آتينا " الذى يدل على تحقق الوقوع ، فضلاً عن اشتماله على نون العظمة الذى توحى بأن كل شئ تحت قدرة الله فهو الذى يقول للشئ كن فيكون .

كما أن مجئ المسند فعلاً (آتينا) أفاد حصول الحدث وهو الإتيان فى زمن معين بإيجاز ، وبهذا تبين لنا دقة التعبير القرآنى ؛ لأن الفعل يفيد المراد مع الإيجاز ، ووضع الاسم موضعه يذهب بهذه النكتة البلاغية وهى الاختصار والإيجاز .

كما صرح باسم المؤتى وهو سيدنا "داود" والتصريح به من باب التخصيص ، أى أن هذا الفضل خاص بسيدنا داود فقط ، وهو معجزة من معجزاته التى لم تتوفر لنبى غيره .

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أعطى سيدنا داود اسماً ليس فيه حروف الاتصال ، فدل على أنه قطعه عن العالم بالكلية وشرفة بالطاقة الخفية والجلية فإن بين الاسم والمسمى مناسبة لا يفهمها إلا أهل الحقيقة[190] .

ولما كان المؤتى قد تكون واسطة ، لمن منه الإيتاء ، بين أن الأمر ، ليس إلا منه فقال " منا فضلاً " ودل على أن التنوين للتعظيم ، وأنه لا يتوقف تكوين شئ على غير إرادته بقوله[191] .

والتعبير بقوله (منا) يوحى بأنه كان بلا واسطة ، لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية ، كما فى قوله " وآتيناه من لدنا علماً " ، وتقديم سيدنا داود على المفعول الصريح ، للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر، ليتمكن فى النفس عند وروده فضل تمكن[192] .

---

189 - ينظر : تفسير القرطبى ١٤ / ٢٦٤ ، ٢٥٦ ، وفتح البيان ١١ / ١٦٧ ، وروح المعانى ٢٢ / ١١٢

190 - ينظر : تفسير روح البيان ٧ / ٣٦٥

191 - ينظر : نظم الدرر ٦ / ١٥٧

192 - ينظر : روح المعانى للآلوسى ٢٢ / ١١٢

كما أن قوله تعالى " منا " إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام حيث كان هذا الفضل من قبل المولى سبحانه وتعالى لا من قبل أحد غيره ، وذلك تشريف للفضل الذى أوتيه داود عليه السلام .

وتنكير " فضلاً " لتعظيمه وهو فضل النبوة وفضل الملك ، وفضل العناية بإصلاح الأمة ، وفضل القضاء بالعدل وغير ذلك [١٩٣] .

وفى ذكر فضله عبرة للناس ، يحس عناية الله بالمنيبين ، تعريضاً بضد ذلك للذين لم يعتبروا بآيات الله ، وفى هذا إيماء إلى بشارة النبى ﷺ بأنه بعد تكذيب قومه ، وضيق حاله منهم سيؤول شأنه إلى عزة عظيمة وتأسيس ملك أمة عظيمة ، كما آلت حال داود ، وذلك الإيماء أوضح فى قوله تعالى {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [١٩٤][١٩٥] .

وقوله : (ياجبال أوبى معه والطير) فيه إيضاح بعد إبهام ؛ لأن قوله السابق (ولقد أتينا داود منا فضلاً) إبهام وإجمال فيه تشويق وترغيب للنفس لمعرفة هذا الفضل الذى أعطاه إياه لسيدنا داود .

ثم يأتى الإيضاح والتفصيل : وقد حصل التلهف والشوق من المخاطب " ياجبال أوبى معه والطير ... " فيتمكن الخبر فى نفوس السامعين ويركز فى عقولهم .

وقوله : (ياجبال) إما أن يكون بدلاً من (فضلاً) وأما من (اتينا) بتقدير : قولنا : ياجبال أو قلنا ياجبال [١٩٦] .

وتأمل خطاب الله للجبال ، حيث نزلها منزلة العقلاء " ياجبال أوبى معه " وهذا الخطاب الذى صدر من الله – سبحانه وتعالى –إلى الجبال التى لا تعقل فيه من الفخامة التى لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية ، وكبرياء الإلهية ، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا ، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد ناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته [١٩٧] .

---

١٩٣ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٥

١٩٤ – الآية ١٧ من سورة ص .

١٩٥ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٥

١٩٦ – ينظر : الكشاف ٣ / ٢٨١ .

١٩٧ – ينظر : المرجع السابق ٣ / ٢٨١ .

وتأمل سلطان الإلهية حيث خاطب " الجبال" التى هى أغلظ الأرض وأثقلها فبادرت بالإجابة وامتثلت لأوامره .

وهذا الخطاب (ياجبال ...) على حقيقته لأن خطاب الله تعالى صالح لكل الكائنات ؛ لأنه خالقهم وموجدهم .

وقوله (أوبى معه) أى سبحى ، ومعنى تسبيح الجبال ، أن الله – سبحانه وتعالى – يخلق فيها تسبيحاً كما خلق الكلام فى الشجرة ، فيسمع منها ما يسمع من المسبح معجزة لداود [١٩٨] .

وقيل : إن التأويب على معنيين :

أحدهما : الترجيع وهو بالفارسية " نغمة كرد ايندن " لأنه من الأوب وهو الرجوع .

والثانى : السير بالنهار كله ، فالمعنى على الأول رجعى معه التسبيح ، وسبحى مرة بعد مرة ، والمعنى على الثانى سيرى معه حيث سار [١٩٩] .

فإن قيل : قد صح عند أهل الحقيقة أن للاشياء جميعاً تسبيحاً بلسان فصيح ولفظ صريح يسمعه الكمل من أهل الشهود ، فما معنى الفضل فيه لداود ، فالإجابة على ذلك : إن الفضل موافقة الجبال له بطريق خرق العادة ، كما دل عليه كلمة (مع) [٢٠٠] .

فانظر إلى عظمة الإلهية إذ من طبع الصخور الجمود ، ومن طبع الطيور النفور ، ومع هذا فقد وافقته عليه السلام فأشد منها القاسية قلوبهم الذين لا يوافقون ذكرا ولا يطاوعون تسبيحا ، وينفرون من مجالس أهل الحق نفور الوحوش ، بل يهجمون عليهم بإقدام الإنكار كأنهم الأعداء من الجيوش .

وتأمل صيغة الأمر التى سبقت بالنداء (ياجبال أوبى معه) وهذا يدل على بلاغة النظم القرآنى ؛ لأن التصدير بالنداء يدل على أن ما يذكر بعده أمر مهم .

---

١٩٨ – ينظر : الكشاف ٣ / ٢٨١

١٩٩ – ينظر : تفسير روح البيان ٧ / ٢٦٥ ، ٢٦٦

٢٠٠ – ينظر : المرجع السابق ٧ / ٢٦٦

والطاهر بن عاشور يصرح بأن الأمر فى قوله (أوبى معه) أمر تكوين وتسخير[٢٠١] ، ولعله إلى الحقيقة أقرب .

ولا يخفى ما فى تكرير الحرف وتضعيف الفعل (أوبى) من الفائدة العظيمة للمعنى ،حيث إنه دل على دقة المعنى المراد ، وقد أفاد تكرير الحرف والتضعيف المبالغة فى التسبيح والترديد بالذكر والتكثير فى ذلك .

ومن الجدير بالذكر : أن جملة (ياجبال أوبى معه) مقول قول محذوف، وحذف القول استعمال شائع ، أو فعل القول المحذوف جملة مستأنفة ، استئنافا بيانيا لجملة : أتينا داود منا فضلا" [٢٠٢].

كما أنه عطف أخف الطير وألطفه " ليكون آية سماوية على أنه يفعل فى السماء ما يشاء ، فإنه لو أمات الطائر فى جو السماء لسقط ، ولا فرق فى ذلك بين عال وعال فقال " والطير" أى دعوناها أيضا فكانت ترجع معه الذكر ، فدل قرانها بالطير على ذكرها حقيقة كذكر الطير دفعا لتوهم من يظنه رجع الصدا " [٢٠٣] .

كما أن "الطير" منصوب بالعطف على المنادى ؛ لأن المعطوف المعرف على المنادى يجوز نصبه ورفعه ، والنصب ارجع ، ويجوز أن يكون " والطير " مفعولا معه لـ (أوبى) والتقدير : أوبى معه ومع الطير : فيفيد أن الطير تأوب معه أيضا [٢٠٤].

ثم ساق لنا النظم القرآنى نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها على سيدنا داود ، فقال " وألنا له الحديد" أى جعلنا الحديد فى يده لينا يصنع به ما يشاء من غير حاجة إلى نار ولا مطرقة ، بل كان يفتله فى يده مثل الخيوط ، ليعمل به الدروع الكاملات الواسعات التى تقى من ويلات الحروب ، فلا هى صغيرة ضيقة لا تحقق الهدف ، ولا كبيرة ثقيلة على لابسها فيعجز عن لبسها .

---

٢٠١ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .
٢٠٢ – المرجع السابق ٢٢ / ١٥٦ .
٢٠٣ – نظم الدرر ٦ / ١٥٨ .
٢٠٤ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٦ .

وقيل : أعطاه قوة يثنى بها الحديد[٢٠٥] .

وتأمل الفعل الماضى مصحوبا بفاعله " وألنا " ولاشك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق معجزة لنبى الله داود ، لا تنطبق على غيره . ومما يزيد من المعجزة أن الإلانة كانت من قبل الله ، ولم يكلف بها أحدا من خلقه، ولعل السر فى ذلك أن هذه معجزة من معجزات الأنبياء التى أيد الله بها أنبيائه لتكون شاهدا ومصداقا على رسالتهم التى أرسلوا بها .

والضمير فى (له) يعود على سيدنا داود .

وتأمل المفعول الذى صيره الله فى يده مثل الخيوط (الحديد) الذى هو أقوى المعادن صلابة .

وقوله (وألنا له الحديد) معطوف على قوله (أتينا) تقديره : أتيناه فضلا وألنا له ، وهذا من الفضل الذى منحه الله سبحانه وتعالى لنبيه – داود – عليه السلام .

وقيل : إن المعطوف عليه ، يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى " ياجبال " تقديره : قلنا " ياجبال " أوبى وألنا[٢٠٦] .

وسبب إلانة الحديد له قيل : إن سيدنا داود لقى ملكا ، وهو يظنه إنسانا، فقال لهذا الشخص الذى تمثل فيه الملك ، ما قولك فى هذا الملك داود ؟ فقال له الملك : نعم العبد لولا خلة فيه ، قال داود : وما هى ؟ قال : يرتزق من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده ، لتمت فضائله ، فرجع فدعا الله تعالى أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلمه تعالى صنعة لبوس ، وألان له الحديد ، فكان فيما روى يصنع ما بين يومه وليلته درعاً تساوى ألف درهم حتى أدخر منها كثيرا وتوسعت معيشه منزله ، وكان ينفق ثلث المال فى مصالح المسلمين[٢٠٧] .

ثم ذكر علة الإلانة بصيغة الأمر ، إشارة إلى أن عمله لله فقال " أن أعمل سابغات وقدر فى السرد " أى : أتينا داود كل هذا الفضل الذى من

---

٢٠٥ – ينظر : المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٧ .
٢٠٦ – ينظر : التفسير الكبير ٢٥ / ٢١٢ .
٢٠٧ – ينظر : المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

جملته إلانة الحديد فى يده وقلنا له : يا داود اصنع دروعا سابغات تامات وَأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة وأقوى هيئة [٢٠٨].

و (أن) فى قوله : (أن أعمل سابغات) مصدرية على حذف حرف الجر ، وقيل : إن (أن) مفسرة لا موضع لها من الإعراب ، وقيل هى فى موضع نصب باسقاط حرف الجر [٢٠٩]. والعلامة أبو السعود رجح أن تكون مصدرية ، وقال : حملها على المفسرة تكلف لا يخفى [٢١٠].

وقوله (أن أعمل سابغات) فيه إيجاز بالحذف لأن (سابغات) صفة لموصوف محذوف لظهوره من المقام ، إذ شاع وصف الدروع بالسابغات ، حتى استغنوا عند ذكر هذا الوصف عن ذكر الموصوف .

وقوله تعالى (وقدر فى السرد) اختلف المتأولون فى أى شئ هو التقدير : من أشياء السرد : فقال بعضهم : التقدير الذى أمر به هو فى قدر الحلقة ، أى لا تعملها صغيرة فتضعف ولا تقوى الدرع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة فينال لابسها من خلالها ، وقال بعضهم : التقدير الذى أمر به هو المسمار يريد ثقبه ، حين يشد نتيرها ، وقيل : إن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالا ، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أى قدر ما يأخذ من هذين المعنيين بقسطه ، أى : لا تقصد الحصانة فتثقل ، ولا الخفة وحدها فتزيل المنعة [٢١١].

والأمر فى قوله (أن أعمل) للوجوب .

وفى قوله " وقدر فى السرد " استعارة ؛ لأن أصل السرد الخرز فى الأديم وإدخال الخيط فى موضع الخرز [٢١٢] ثم استعير لنظم الحديد ونسج الدروع وإدخال الحلقة فى الأخرى بلجمه لا طرف لها بجامع التساوى والإحكام والدقة فى كل .

---

٢٠٨ – ينظر : التفسير الوسيط ١١ / ٢٧٤ .
٢٠٩ – ينظر : المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٨
٢١٠ – ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٣٤٢
٢١١ – ينظر : المحرر الوجيز ٤ / ٤٠٨ ، والقرطبى ١٤ / ٨٦٧، وإرشاد العقل السليم ٤ / ٣٤٢ ، وروح المعانى ٢٢/ ١١٥ .
٢١٢ – ينظر: لسان العرب ٦/ ٢٣٣ (سرد) .

وهـذه الـصورة الاستعارية ، تبين لنا دقة نسج سيدنا داود للدروع ، بحيث تكون كل حلقة مساوية لأختها مع كونها ضيقة ، لئلا ينفذ منها سهم، ولتكن فى تحتها . بحيث لا يقلعها سيف ، ولا تثقل على الدارع فتمنعه خفة التصرف وسرعة الانتقال فى الكر والفر والطعن والضرب فى البرد والحر ، كما أن هذه الصورة الاستعارية توحى بأنه لم يكن فى حلقها مسامير ، لعدم الحاجة بالانة الحديد إليها ، وإلا لم يكن للإلانة فائدة .

ثـم أمـر – سـبحانه وتعالـى – داود وأهلـه بالعمـل الصالح فقال { وَاعْمَلُـوا صَـالِحًا إِنِّـي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } أى : واعملوا عملا صالحا يرضـينى ، فإنى مطلع ومحيط ومبصر لكل ما تعملونه من عمل وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى تستحقونه .

وضـمير (اعملـوا) لـداود وآلـه ، أو لـه وحـده علـى وجـه التعظيم [٢١٣] .

والأمـر فى قوله (واعملوا) خرج من معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى هو الترغيب والترهيب ، ترغيبا وحثا واستزادة من العمل الصالح ، وترهيبا مـن مخالفـة أمره ؛ لأنه مطلع على كل صغيرة وكبيرة تصدر من العباد ، وسيجازى كل إنسان بما كان يعمل .

ويـؤيد مـا ذهبنا إليه قول الإمام الآلوسى (إنى بما تعملون بصير) فأجـازيكم بـه وهـو تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال به على وجه الترغيب والترهيب [٢١٤] .

ومـن يعيد النظر فى كلام الآلوسى يجد الآلوسى يومئ إلى أن الأمر قد يكون للوجوب أيضا .

ومـما زاد مـن حدة الترغيب والترهيب ، تعليله لفعل الأمر (إنى بما تعملـون بـصير) وقـد جـاء هـذا التعبيـر مؤكدا بأكثر من موكد وهو (إن) واسـمية الجملـة ، وذلك " إشارة إلى أن إنكارهم للقدرة على البعث

---

٢١٣ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٧

٢١٤ – ينظر : روح المعانى ٢٢ / ١١٦

إنكار لغيرها من الصفات وإلى أن المتهاون فى العمل فى عداد من ينكر أنه بعين الله " [٢١٥].

وتأمل التعبير بقوله " بصير " والبصير هو المدرك لكل موجود برؤيته ومن عرف أنه البصير راقبه فى الحركات والسكنات ، حتى لا يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره .

والبصير : كناية عن الجزاء عن العمل الصالح [٢١٦].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن قوله " واعملوا صالحا " فيه إيجاز بالحذف حيث حذف الموصوف والتقدير : واعملوا عملا صالحا .

---

٢١٥ – نظم الدرر ٦ / ١٦٠

٢١٦ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٢/ ١٥٧ .

المبحث الرابع

خطاب الله -سبحانه وتعالى - للنار

ورد هـذا الخطـاب فى قول الله تعالى فى سورة ق : {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ }[٢١٧] الآية ٣٠ .

مناسبة الآية لما قبلها :

بعد بيان أحوال الناس يوم القيامة وعند الموت ، وبعد بيان هذا الحوار الذى دار بين الكافر وقرينه الشيطان ، يتوجه المولى – سبحانه وتعالى– ، بسؤال إلى النار هل امتلأت : فتجيب قائلة : هل من مزيد .

المعنى العام للآية :

أى اذكـر يـا محمـد لقومك وأنذرهم حين يقول الله تعالى لجهنم : هل امـتلات بالأفـواج من الجنة والناس ، فتنطق جهنم وتجيب قائلة : هل بقى شئ من زيادة تزيدوننى بها ؟

من الأسرار البلاغية فى الآية :

بـدأت هـذه الآيـة بالظرف " يوم " وانتصاب (يوم) بـ (ظلام) ، والمعنى ما أنا بظلام يوم قولى لجهنم . أو بتقدير فعل : اذكر ، أى اذكر يا محمد لقومك وأنذرهم حين يقول الله – سبحانه وتعالى –لجهنم : هل امتلات ، فتجيبه قائلة : هل بقى شئ من زيادة تزويدننى بها ؟ والمراد أنها اكتفت وامتلأت بما ألقى فيها ، أى لا أسع أكثر من ذلك فإنى قد امتلأت[٢١٨].

وقـوله (يـوم نقـول لجهـنم) كناية عن موصوف هو يوم القيامة ، وأوثـرت الكـناية على التصريح لما فيها من نسبة التهويل إليه ، وكأنه لا يعرف ولا يميز عن بقية الأيام إلا بمقاولة الله للنار ومقاولة النار لله [٢١٩].

---

٢١٧ – الآية ٣٠ من سورة ق.

٢١٨ – ينظـر : المحـرر الوجيز ٥ / ١٦٥ ، والبحر المحيط ٩ /٥٣٨ ، حاشية الصاوى ٤ /١٠٢ .

٢١٩ – ينظر : التفسير البلاغى للاستفهام ٤ /١٤٩ .

و(جهنم) : هى دار العذاب مع الكراهة والعبوسة والتجهم إظهاراً للهول بتصوير الأمر المهدد به ، وتقريع الكفار وتنبيه من يسمع هذا الخبر .

وهذا القول لجهنم مقصود به ترويع المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا فى أنهم بكثرتهم يضيق بها سعة جهنم ، فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فيها ، فحكاه الله فى القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين ، وتعليما لأهل القرآن المؤمنين [٢٢٠] .

تأمل إيثار الفعل المضارع (نقول) الذى أفاد استحضار الصورة فى أذهان السامعين ؛ لتوقفهم أمام هذا المشهد شاخصين كأنهم يرونه رأى العين ، يزيد فى تهويل هذه الصورة ورود هذه الصيغة بنون الفاعلين الدالى على العظمة والجلالة .

وقوله (هل امتلأت) للتقرير فالله يقررها بأنها امتلأت أى يجعلها تقر بذلك ترهيباً للمخاطبين بعظم استيعابها .

وآثر النظم القرآنى (هل) فى قوله (هل امتلأت) – هنا – للإشعار بكثرة من ألقى فى النار ساعة يقال لها هذا القول ، كما أن هذا التعبير يشتمل على إيجاز بالحذف ، للعلم بالمحذوف ، والتقدير : هل امتلأت من الكفار والعصاة ، وصدور هذا السؤال من الله لا ليعلم مجهولا عنه – حاشا لله – بل لتخويف العباد من النار والعمل على النجاة منها [٢٢١] .

وهذا الاستفهام : هل امتلأت " والاستفهام الذى بعده " هل من مزيد " اختلف فيهما العلماء إلى آراء عدة :

الرأى الأول : ذهب الزمخشرى إلى أن الاستفهامين سيقا مساق التخييل الذى يثبت المعنى فى النفس فقال : إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذى يقصد به تصوير المعنى فى القلب وتثبيته وفيه معنيان : أحدهما أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شئ ولا يزاد على امتلائها لقوله تعالى

---

٢٢٠ – ينظر : التحرير والتنوير ٢٦ / ٣١٧ .
٢٢١ – ينظر : التفسير البلاغى ٤ / ١٤٩ .

(لأمـــلان جهنم) والثانى أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفـــيها موضـــع للمزيد ، ويجوزَ أن يكون هل من مزيد ، استكثارا للداخلين فيها واستبعادا للزيادة عليهم لفرط كثرتهم أو طلبا للزيادة غيظا على العصاة [٢٢٢].

الـــرأى الثانـــى : إن الـــسؤال على حذف مضاف ، أى نقول : لخزنة جهنم " [٢٢٣].

وبـــناء علـــى ذلك يكون السؤال ليس موجها إلى جهنم وإنما إلى الخزنة .

الرأى الثالث : قال : إن الاستفهام الأول تقريرى ، فالمولى – ســـبحانه وتعالـــى – يقـــررها بأنهـــا امتلأت أى يجعلها تقر بذلك والاســـتفهام الثانـــى بمعنى النفى أى لا أسع غير ذلك وهو جواب الاســـتفهام الأول ، وقـــيل : إن الاستفهام الثانى لطلب الزيادة فهو بمعنى زدنى [٢٢٤].

الـــرأى الرابع : قال إن السؤال والجواب حقيقة ؛ لأنه لا يلجأ إلـــى المجـــاز إلا إذا تعذر أو استحال المعنى الحقيقى ولا تعذر ولا اســـتحالة هنا ؛ لأنه سبحانه وتعالى – خاطب جهنم العقلاء واجابته جواب العقلاء ولا مانع من ذلك عقلا ولا شرعا [٢٢٥].

ولعـــل الرأى الراجح أن يكون سؤال جهنم وجوابها حقيقة لا تمثيل ولا تخيـــيل ، فـــالله قادر على إنطاق كل شئ كما انطق الجلود فى سورة فصلت ويوم القيامة يوم أهوال ، والهول هو الأمر الغريب غير المألوف عند الناس فحرى بنا آلا نختلف حول هذه الحقيقة [٢٢٦].

---

٢٢٢ – ينظر : الكشاف ٤/ ٩ ، ١٠ .
٢٢٣ – ينظر : البحر المحيط لأبى حيان ٩ / ٥٣٨ .
٢٢٤ – ينظـــر : التفـــسير المنيـــر ٢٦ / ٣٠٤ ، وحاشـــية الصاوى على تفسير الجلالين ٤ /١٠٢ .
٢٢٥ – ينظر : حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ٤/ ١٠٢ .
٢٢٦ – ينظر : التفسير البلاغى ٤/ ١٥٠ .

كما أن الذى يرجح أن يكون هذا السؤال حقيقة ، هو قول أنس بن مالك عندما بين فى الحديث الصحيح المتواتر قول النبى صلى الله عليه وسلم " يقول الله لجهنم هل امتلأت ، وتقول " هل من مزيد " حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط وينزوى بعضها إلى بعض [٢٢٧].

والفاء فى قوله " فتقول هل من مزيد " للترتيب والتعقيب مع إفادة معنى السببية وفيه إيماء إلى تلهف النار على المزيد من الكفار والعصاة الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وإيثار أداة الاستفهام هل فى قوله (هل من مزيد) للإعلام بأنها لا تكف عن تلقى المجرمين فهى سجن أو سجين ، لا ترد مجرما ولو تراكم بعضهم فوق بعض [٢٢٨].

والمزيد : مصدر ميمى وهو الزيادة مثل المجيد والحميد ، ويجوز أن يكون اسم مفعول من زاد ، أى هل من جماعة آخرين يلقون فى [٢٢٩].

* * * * *

---

٢٢٧ – أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها – باب : النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء ٤ / ٢١٨٧ رقم ٢٨٤٨ – دار إحياء التراث العربى – تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى .

٢٢٨ – ينظر : تفسير البلاغى ٤ / ١٥٠ .

٢٢٩ – ينظر : التحرير والتنوير ٦ / ٣١٨ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير البرية أجمعين ، سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

فهانذا قد انتهيت من هذه الرحلة المباركة فى رحاب القرآن الكريم ، ذلك الكتاب المبين ، والكنز الثمين ، والحبل المتين ، والبلاغة النادرة ، والآية الظاهرة ، والحجة القاهرة ، وقد كشفت لنا هذه الرحلة عن نتائج كان أبرزها ما يلى :

١ – أن الرأى الراجح فى خطاب الله لغير العاقل أنه حقيقة ، بغض النظر عن كيفية هذه الحقيقة ، فالله أعلم بها ، ولا سبيل لأحد إلى الوقوف عليها ، فالكل خلقه ، والكل يخضع لقدرته وعظمته ، وهو على كل شىء قدير .

٢ – أن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم ، جاء على صور متعددة ، وأشكال متباينة ، فمرة جاء فى صورة النداء المصحوب بفعل الأمر ، كخطاب الله – سبحانه وتعالى – للأرض ببلع الماء ، وللسماء بالإقلاع فى قوله تعالى : { وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغِيضَ المَاءُ ... }[٢٣٠] ، وكخطاب الله –سبحانه وتعالى – للجبال والطير فى قوله { وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ... }[٢٣١] ، ومما لاشك أن ذكر الأمر عقب النداء فيه عناية واهتمام كبير بالخبر الملقى على السامع ؛ لأن التصدير بالنداء يدل على أن ما يذكر بعده أمر مهم .

ومرة جاء على صورة الأمر ، بدون أن يسبقه نداء ، كقوله – عز وجل – لما خاطب النحل : { وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ

230 – من الآية ٤٤ من سورة هود .
231 – من الآية ١٠ من سورة سبأ .

الجِبَالِ بُيُوتاً ... } [٢٣٢] ، وقوله أيضا عندما خاطب السماء والأرض بالإتيان طوعاً أو كرها : { ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أو كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ... } [٢٣٣] .

ومرة جاء على صورة الاستفهام ، كخطاب الله – سبحانه وتعالى – للنار فى قوله : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ... } [٢٣٤] .

فمجئ خطاب الله لغير العاقل على صور متعددة وأشكال متباينة دليل واضح على بلاغة القرآن وإعجازه ، فكل صورة قد عبر بها فى محلها قد أصابت المحز ، وأدت الدور المنوط بها خير أداء ، مما لا يمكننا أن نستبدلها بصورة أخرى ، وإذا فعلنا ذلك أطفأنا نورها ، وأنضبنا ماءها ؛ لأن كل صورة فى القرآن الكريم أشبه بالعضو فى جسم الإنسان ، يؤدى وظيفته عندما يكون فى موضعه ، فإذا نقل من مكانه إلى موضع آخر تغير حال الجسم واختل توازنه .

٣ – إن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم جاء فى سياقات متشابهة – إن لم تكن واحدة – وهى إثبات قدرة الله ووحدانيته وعظمته، فمثلاً عندما خاطب النحل بقوله تعالى : { وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي ... } ، هذا الخطاب جاء فى سياق إثبات قدرته تعالى ، فعندما انتهى من ذكر ما يدل على باهر قدرته وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرث ودم ، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من النحل وهى دابة ضعيفة لما فيه من العجائب البديعة والأمور الغريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته .

كذلك خطابه للجبال والطير فى قوله : { ولَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ... } فهذا الخطاب كان سببه أن أولئك الكفار لما أنكروا البعث لاستحالته عندهم ، أخبرهم بوقوع ما هو مستحيل فى ا

232 – من الآية ٦٨ من سورة النحل .
233 – الآية ١١ من سورة فصلت .
234 – من الآية ٣٠ من سورة ق .

لعادة ، مما لا يمكنهم إنكاره ، إذ طفحت ببعضه أخبارهم ، وشعراؤهم من تأويب الجبال والطير مع داود – عليه السلام – وإلانة الحديد له .

كذلك لما أمر المولى – سبحانه وتعالى – الأرض ببلع الماء والسماء بالإقلاع فى قوله : { وقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ... } فتم النداء العلوى وبلعت الأرض ماءها ، وكفت السماء عن المطر وغاض الماء وقضى الأمر وأنجز ما وعد الله نوحاً من هلاك قومه الظالمين ، وكل ذلك تم فى وقت قصير مما يدلل على عظمة الله وقدرته ، فكل المخلوقات تخضع لقدرته وعظمته .

فضلاً عن أن سبب خطابه – سبحانه وتعالى – للسماء والأرض بالإتيان طوعاً أو كرها فى قوله : { ثُمَّ استَوَى إلى السَّمَاءِ وهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ } أنه بعد أن أمر بتوحيده فى الألوهية والربوبية أردفه بما يدل على وجوده وهو الخلق الأول للأرض والسماء ، وكيف أن جميع المخلوقات تحت إرادته وسلطانه فها هى السماء والأرض لما وجه إليهما أمر الإتيان ، أجابتا على وجه السرعة بقولهما : أتينا طائعين .

ولعل مجئ خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم فى سياقات متشابهة وهى إثبات قدرة الله ووحدانيته ، يعد ذلك تبتيكاً وتقريعاً وتوبيخاً لهؤلاء الكفرة الذين طمس الله على بصيرتهم ، ولم يؤمنوا بأن لهذا الكون إلهاً واحداً لا شريك له ، فكأن الله يقول لهم : ها هى الجمادات والطيور التى سلبت منها نعمة العقل ، لما وجهت إليها أمرى استجابت على الفور ، وأنتم – مع وجود العقل فيكم – لما أمرتم بالإسلام والإيمان ، لغيتم عقولكم واستكبرتم وأبيتم إلا الخلود فى النار بسبب شرككم .

٤ – أن خطاب الله لغير العاقل فى القرآن الكريم كان وراؤه أسراراً بلاغية كثيرة منها :

أ – أن أمر الله وتكليفه نافذ فى الجمادات ، فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك ، فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء من باب أولى .

ب – أن خطاب الله لغير العاقل فى ا لقرآن الكريم يقرر فى الوهم نوع عظمة الله وجلاله تقريراً كاملاً ، ويصور عظمة القدرة الإلهية ونفوذها فى المقدورات ، دقت أو جلت وتصوير لسرعة وجودها أى : إذا أراد أمراً من الأمور فلا يحتاج إلى تعب وعناء ، وإنما يوجد فوراً دون تأخير .

٥ – كذلك أظهرت هذه الرحلة أن خطاب لغير العاقل غالباً يحذف فيه فيه المخاطَب وهو الله – سبحانه وتعالى – اعتمادا على السياق والأسرار البلاغية من وراء هذا الحذف فتأمل قوله : (وقيل يا أرض ...) ، وقوله (يا جبال أوبى معه والطير ...) ، وقوله : (فقال لها وللأرض ...) ، وقوله : (يوم نقول لجهنم ...) كل هذه الآيات لم يصرح فيها بالمخاطَب ولعل السر وراء ذلك بأن هذه الأفعال لا تصدر إلا من الله ، كما أن هذا الخبر لا يكون إلا له سبحانه حقيقة .

أضف إلى ذلك أن حذفه يدل على أنه سبحانه فى الجلال والعلو والعظمة بحيث متى قيل : (وقيل يا أرض ...) لم ينصرف العقل إلا إليه، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو الله ، وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنه تقرر فى العقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو .

كما أن حذفه يدل على أن خطاب ما لا يعقل من الأمور العظام التى لا تصدر إلا من ذى قدرة لا يكتنه قهار لا يغالب فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته هو الذى فعل هذه الأشياء .

وإذا ذكر المخاطَب وصرح باسمه – سبحانه وتعالى – يكون ذكره لغرض بلاغى استدعاه المقام كما فى قوله تعالى : { وأَوْحَى رَبُّكَ إلى النَّحْلِ أن اتَّخِذِي ... } فذكره هنا من أجل أن يناسب المقام الذى تتحدث عنه هذه الآيات ، فالمولى – سبحانه وتعالى – بعد أن وعد المؤمنين بالجنان ، وتوعد الكافرين بالنيران ، انتقل السياق إلى إثبات قدرته وعظمته بدلائل حسية مشاهدة لكل من رآه من إنبات الزرع والشجر والمطر ، وإخراج اللبن من بين فرث ودم ، واتخاذ أصناف المآكل من الأعناب والنخيل ، وإخراج العسل من بطون النحل ، الذى فيه شفاء

للناس ، فذكر المخاطَب فى هذه الآية (وأوحى ربك) أعون على ترسيخ ذلك فى ذهن السامع .

كذلك يلاحظ فى خطاب الله لغير العاقل مظاهر القدرة الإلهية ، فانظر إلى قوله تعالى : { يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ } ، خاطب الجبال التى هى أغلظ الأرض وأثقلها ، فبادرت بالإجابة وامتثلت لأوامره فانظر إلى عظمة الإلهية إذ من طبع الصخور الجمود ، ومن طبع الطيور النفور ، ومع هذا فقد وافقت سيدنا داود – عليه السلام – فى التسبيح .

كذلك تأمل مظاهر القدرة الإلهية فى قوله (وألنا له الحديد) ولاشك أن إلانة الحديد من غير نار ولا طرق لا تكون إلا من قبل الله – سبحانه وتعالى – .

كذلك يلاحظ فى خطاب الله لغير العاقل كثرة مجيء حرف العطف (الفاء) مما يدلل على سرعة استجابة غير العاقل للأوامر الإلهية ، فانظر إلى قوله تعالى : { ... فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ... } كذلك خطابه للنحل : { وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ } فجاء العطف بالفاء فى قوله (فاسلكى) لأن المراد إذا أكلت فاسلكى طرق ربك إلى بيوتك راجعة بسرعة ولا تتأخرى .

وإذا جاء حرف العطف (ثم) فمجيئه يكون لسر بلاغى كما فى قوله (ثم كلى من كل الثمرات) والسر فى استعمال هذا الحرف دون حرف العطف (الفاء) مثلا أن سعيها لطلب الرزق بعد اتخاذها البيوت لسكنها لتطلب بعد ذلك الرزق فى مظانه .

٦ – كذلك أظهرت هذه الرحلة أن القرآن الكريم فى أعلى درجات البلاغة من حيث انتقائه لألفاظه ، واختياره لمعانيه ، ومن حيث تراكيبه ، وترتيب ألفاظه ، ومن حيث الصور البيانية التى جاءت فى ألفاظه وعباراته حتى إن كل صورة بيانية فيه كانت تصور المشهد وكأنه رأى العين أمام القارئ .

فضلاً عن أن كل كلمة فيه تستدعى منا وقفات طويلة مأنية ؛ لأن لكل لفظ مقام فى التركيب تقتضيه الصياغة ويتطلبه المعنى ، ويستلزمه النظم ، وكلما عاودنا النظر فى كلماته استطعنا أن نخرج بعض كنوزه ودرره الكثيرة .

٧ – كذلك أظهرت هذه الرحلة أن الآية القرآنية عبارة عن لوحة فنية رائعة متكاملة مرتبط أولها بآخرها ، لا نستطيع أن نقدم ما أخر منها ، ولا نؤخر ما قدم ، ولا نذكر ما حذف ولا نحذف ما ذكر ، ولا نوجز فيما أطنب فيه ، ولا نطنب فيما أوجز فيه ، ولا نستبدل كلمة بأخرى ، فلكل مقام مقال ، ولكل كلمة مع صاحبتها موقف ، ولا عجب فى ذلك فهو { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } .

وختاماً : أسأل الله العلى القدير أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتجاوز عن زلل اللسان وعثرة القلم ، وقلة الفهم ، ونقصان التدبر ، وعن التجرأ فى الكلام عن قرآنه العظيم بدون أن نملك وسائل العدة الكافية للخوض فى هذا البحر الضخم إنه سميع قريب مجيب الدعوات

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

فهرس المصادر والمراجع

١. الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – نشر وتوزيع دار التراث – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود – دار الفكر – من دون.

٣. أساس البلاغة للزمخشرى – الطبعة الثالثة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

٤. الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم – د / صباح دراز– الطبعة الأولى – مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

٥. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – تأليف / مصطفى صادق الرافعى – دار الفكر العربى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.

٦. إعراب القرآنت الكريم وبيانه – تأليف . أ / محيى الدين الدرويس – الطبعة الرابعة – دار اليمامة ودار ابن كثير ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤م.

٧. الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى – تحقيق / محمد عبد المنعم خفاجى – الطبعة الثالثة – المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م.

٨. بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى – تحقيق / حفنى محمد شرف – نهضة مصر للطبعة والنشر.

٩. البحر المحيط لأبى حيان – دار الفكر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.

١٠. البرهان فى علوم القرآن للزركشى – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – بيروت – من دون.

١١. البيان فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن – دار المعارف.

١٢. تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصرى – تحقيق : د / حفنى محمد شرف – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.

١٣. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر.
١٤. التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم – د / عبد العظيم المطعنى – مكتبة وهبة – الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م.
١٥. تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقنى البروسوى – ط السابعة – دار إحياء التراث العربى – بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
١٦. التفسير الكبير للرازى – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م.
١٧. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج – أ . د / وهبه الزحيلى – دار الفكر – من دون.
١٨. التفسير الوسيط للقرآن الكريم – د / محمد سيد طنطاوى – دار المعارف ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢م.
١٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٢٠. الجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه – تصنيف / محمود صافى – الطبعة الأولى – دار الرشيد ١٤١١ هـ / ١٩٩١م.
٢١. حاشية الجمل على تفسير الجلالين.
٢٢. حاشية السيد الشريف على المطول.
٢٣. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى – دار إحياء التراث العربى – مؤسسة التاريخ العربى – بيروت – لبنان – من دون.
٢٤. حاشية الصاوى على تفسير الجلالين – طبعة دار إحياء الكتب العربية.
٢٥. حاشية محيى الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوى – دار صادر – بيروت – المكتبة الإسلامية.
٢٦. دلالات التراكيب " دراسة بلاغية " – د / محمد محمد موسى – الطبعة الثانية – مكتبة وهبة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.
٢٧. دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر – تحقيق / محمود محمد شاكر – مطبعة المدنى – الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م.
٢٨. دليل الحيران فى الكشف عن آيات القرآن – ترتيب الحاج / صالح ناظم– طبع على نفقة محمد على صبيح وأولاده.

٢٩. روح المعانـــى للآلوسى – الطبعة الرابعة – دار إحياء التراث العربى – بيروت ١٤٠٥ هـــ / ١٩٨٥م.
٣٠. شرح المفصل لابن يعيش – مكتبة المتنبى.
٣١. شروح التلخيص – دار الكتب العلمية – بيروت.
٣٢. فـتح البـيان فى مقاصد القرآن لأبى الطيب القنوجى البخارى (ت ١٣٠٧ هـــ) – المكتبة العصرية – بيروت ١٤١٢ هـــ / ١٩٩٢م.
٣٣. فـــن الاســتعارة دراســة تحليلية فى البلاغة والنقد مع التطبيق على الأدب الجاهلى تأليف . د / أحمد السيد الصاوى – الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣٤. فى ظلال القرآن للسيد قطب – دار الشروق.
٣٥. الكشاف للزمخشرى – دار الفكر – من دون.
٣٦. لسان العرب لابن منظور – الطبعة الثالثة – دار إحياء التراث العربى – مؤسسة التاريخ العربى ١٤١٩ هـــ / ١٩٩٩م.
٣٧. المحرر الوجيز لابن عطية – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى محمد – ط الأولى– دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٣ هـــ/ ١٩٩٣م
٣٨. المطول لسعد الدين التفتازانى – المكتبة الأزهرية للتراث – من دون
٣٩. مغنى اللبيب لابن هشام – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية ١٤١١ هـــ / ١٩٩١م.
٤٠. مفتاح العلوم للسكاكى – تحقيق / نعيم زرزور – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية ١٤٠٧ هـــــ / ١٩٨٧م.
٤١. مـــن أســرار التعبيـــر فى القرآن (صفاء الكلمة) – د / عبد الفتاح لاشين – دار المريخ للنشر – الرياض – ط ١٤٠٣ هـــ / ١٩٨٣م.
٤٢. مـــن بلاغـــة القرآن – د/ أحمد أحمد بدوى– دار نهضة مصر – من دون.
٤٣. مـــن فيض القرآن – د / إبراهيم على أبو الخشب – الطبعة الأولى – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م.
٤٤. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للإمام البقاعى – الطبعة الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٥ هـــ / ١٩٩٥م.